روبين فيدين

مصر أرض الوادي

ترجمة: عنايات حسين طلعت





237

المشروع القومى للترجمة

مصر أرض الوادى

بقلم

روبين فيدين

ترجمة

عنايات حسين طلعت



٢٠٠١

EGYPT LAND OF THE VALLEY

ROBIN FEDDEN

مقدمة

اخترت ترجمة هذا الكتاب لسببين ، الأول : أن مؤلفه روبن فيدين كان أستاذى فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة – الآن) . أما السبب الثانى : فهو لأهمية الكتاب نفسه الذى يعد من أكثر الكتب تعاطفًا مع مصر ولم يكن هذا بالشيء المستغرب لى؛ إذ إن فيدين كان من أكثر الناس حبًا لمصر ولشعب مصر ، وزيادة على ذلك فإنه على ثقة كبيرة بمستقبل مصر بعد ثورة ١٩٥٢ . وينعكس هذا فى آخر فقرة فى الكتاب ، والتى تعد تأكيداً لما جاء فى فصوله .

يقول فيدين إنه يعدد بعض المشاكل التى واجهت الرئيس عبد الناصر ومن جاءوا بعده :

« ولكن هناك سبب للأمل ؛ فهناك ذخيرة عظيمة من الشخصية والحيوية تكمن فى مكان ما لهذا الشعب العريق ، فهى بلد لم يكن لها مطلقًا أى نظام طائفى حتى وقت الفراعنة ، فإن الهوية المتحدة تتحقق بصورة طبيعية ، وإذا ما أعطى الفلاح حكمًا يحترمه فهو ونهره يقدران على إنجازات تفوق الحصر . إن فترة سبات تاريخى لم يمكن الخلاص منها بمرور الأسرات وبضغوط السياسة الإمبراطورية قد وقلت إلى نهايتها . ولعل المصرى يدرك أن هناك ميراثًا ينتظره . وبعد كل ذلك الوقت ، فإنه يتحقق ذلك الميراث » .

فى قليل من الكلمات أكد روبين فيدين أن الوحدة القومية بعيدة عن الطائفية وثقته فى أن شعب مصر سيحقق النهضة المطلوبة . هكذا كان فيدين فى كل تعامله معنا كطلبة ، وحتى حين عاد إلى لندن ، حيث كنت هناك مع زوجى ، فإنه يتصل بنا ويساعدنا ويحدثنا عن بلدنا بحب وتقدير .

كلمة أخيرة أود أن أضيفها وهى أنه برغم استمتاعى وأنا أترجم هذا الكتاب العظيم فقد وجدت صعوبة بالغة فى نقل مشاعر الكاتب وذلك لأسلوبه الذى يقرب من الشعر أكثر منه من النثر ، ولعلى استطعت أن أقدم نصًا صادقًا ودقيقًا لمحتوى ذلك الكتاب الضم .

أكثر ما يميز هذا الكتاب الدقة فى المعلومات التى يحتويها ، وهو يعالج فى أحد عشر فصلاً تاريخ مصر وجغرافيتها ومناخها وعادات أهلها وتقاليدهم ، ويخصص

فصلين طويلين للقاهرة بعنوان «أرض العصور الوسطى العظيمة» ولمدينة الاسكندر ، كما يخصص فصلاً لدخول المسيحية وللأديرة القبطية فى الصحراء .

وروبين فيدين يقدم ذلك بتعاطف وفهم لمصر والمصريين ، ويقدم فى كتابه رأياً هاماً عن الهوية المصرية حين يقول :

« وفى وسط هؤلاء القوم وأرضهم جاء الأجانب بحثًا عن الثروة أو السلطة لإقامة أسر حاكمة أو لإدارة حوانيت بقالة ولكنهم فى النهاية دفعوا ثمنًا غاليًا لغزوهم ، لقد فقدوا هويتهم وانضموا تحت هؤلاء الذين غلبوهم أو استغلوهم . إن جموع الجنود الإغريق الذين جعلهم بطليموس الطيب يستقرون فى الفيوم لم يتركوا أى أثر أو عادة من عادات بحر إيجة فى تلك المدينة ، والليبيون الذين أعطوهم أسراً حاكمة صحراوية ، والبطالسة الذين أسبغوا عليهم أسلوب الحياة ، والعرب الذين جاءوا بدين جديد . كل هؤلاء وغيرهم طُمست آثارهم تماماً وكانوا مثل الحصى الذى ترميه فى بركة فلا يفعل إلا مجرد تحريك سطحها ... ولكن مصر – كما وجدها هيرودوت من قبل – لا يمكن أن تكون أى شىء إلا مصر .

الفصل الأول

البلد والمسافر

منذ قرون عديدة أعلن جوبيتر / آمون من واحته الصحراوية « أن مصر هى الأرض الممتدة التى يغطيها ويرويها نهر النيل ، والمصريون هم هؤلاء الذين يعيشون فى جنوب فيلة ويشربون مياه ذلك النهر » . وعلى الرغم من أن هذا الوصف ليس دقيقا تماما إلا أنه وصف لطيف ، فقد قام الإله بربط مصر والمصريين بنهر النيل ربطا لا تنفصم عراه ، لقد كان طمى النيل هو الذى سرق الدلتا من البحر ؛ وبذلك أوجد ثلثى الأرض الصالحة للزراعة .

الآن إذا حاول البحار أن يسبر أغوار البحر وهو لا يزال على بعد سفر يوم من الشاطئ فإن ما سيجده فيه لن يكون الرمال التقليدية بل طمى نهر النيل الأسود ، وهذا الطمى هو رواسب ترمز للأرض التى يتجه إليها بشراعه .

إن النيل هو الذى يكيف مصر وليس هناك مفر من سلطته ، وعلى الرغم من أنه نهر حديث العهد إذا ما قورن بالأنهار الأخرى يشق طريقه بصعوبة بين تلال ومناظر طبيعية أكثر قدما ، إلا أنه يمارس تأثيرا أعظم على عدد أكبر من الناس من نهرى الأمازون والمسيسبى الأقدم منه جغرافيا إن هذا المجرى المنفرد يعد فى مصر المصدر الأول للوجود لأكثر من أربعين مليون نسمة ، ولآلاف من السنين كان مقياس فيضانه هو الذى يتنبأ بالحياة والموت وبالأعياد والمجاعات ، وكانت الجريمة ترتفع وتنخفض تبعا لمياهه ، كما كانت الفضائل تزدهر بسبب مياه الحبشة ، وكان البدوى الذى يزحف من الصحراء سعيا وراء عيشه على حافة الأرض الزراعية وسوق القطن خاضعا أيضا للنهر .

وفى العصور الغابرة كان النيل يأخذ مكانة بين الآلهة ، وكان فيضانه السنوى يمثل دموع إيزيس وهى تبكى من أجل إوزوريس ، وكان يُنظر إليه أيضا على أنه مصدر الحياة ، وأن من طميه الساكن خلق الإنسان والحيوان والطيور والحشرات ، والآن أصبحت المياه – مياه النيل – هى آخر الطقوس التى تقدم إلى المصرى المسلم حين يموت . إن النيل مع هؤلاء الناس منذ الولادة حتى الموت .

وبرغم ذلك فإن النيل وحده ليس مصر ، إن هذا البلد وطميه المميز وأعماله الخالدة هو مزيج من شيئين : النهر ، والكادحين على شاطئيه . ولا يمكن شرح تاريخ خمسة آلاف سنة إلا عن طريق تعاون الفلاح الذى يعد عاملا أساسيا مثل النهر تماما ، والذى يبدو له نفس الدوام ، إن اقتران هذين العاملين وعلاقاتهما بالعالم الخارجى هى التى خلقت مصر من أسوان إلى البحر المتوسط . فقد كيّف هذان العاملان الأرض ووضعا الأهرامات بعيدا عن أرض الفيضان . إنهما يدمغان كل شىء بصفته المصرية الخالصة التى لا يمكن وصفها ولكنها واضحة وجلية ، إنهما يفرقان بين جوامع مصر وجوامع أصفهان . وجعلا خيط النسيج يتحرك إلى أعلى وليس إلى أسفل ، وحولوا مادة أفلاطون إلى تأمل بلتيتوس .

وفى وسط هؤلاء القوم وأرضهم ، جاء الأجانب بحثا وراء الثروة أو السلطة لإقامة أسر حاكمة أو لإدارة حوانيت بقالة ولكنهم فى النهاية دفعوا ثمنا غاليا لغزوهم ؛ لقد فقدوا هويتهم وانضموا تحت هؤلاء الذين غلبوهم أو استغلوهم . إن جموع الجنود الاغريق الذين جعلهم بطليموس الطيب يستقرون فى الفيوم لم يتركوا أى أثر أو عادة من عادات بحر ايجة فى تلك المدينة ، والليبيون الذين أعطوهم أسرا حاكمة صحراوية ، والبطالسة الذين اسبغوا عليهم أسلوب الحياة ، والعرب الذين جاءوا بدين جديد ، كل هؤلاء وغيرهم طُمست آثارهم تماما وكانوا مثل الحصى الذى ترميه فى بركة فلا يفعل إلاّ مجرد تحريك سطحها .

إن قشور الفكر الوافدة من الخارج والتى تُستورد الآن فى الطائرات والسفن كانت من قبل تدخل نهرالنيل فى مراكب شرعية فقدت بريقها ، وسواء حُرِّفت أو حُسِّنت فانه سيصبح من الصعب التعرف عليها ، إذ غلبت عليها طريقة التفكير المحلية ومر الأجانب الغازون الواحد بعد الآخر ، وبقيت ذكراهم فى آثار من الحجارة لا يهتم بها المصريون ، ومثل المجموعات الضخمة من الطيور المهاجرة التى تجتاح وادى النيل ، وتختفى إلى الجنوب الاستوائى الغامض ، فإن هؤلاء الأجانب لم يتركوا خلفهم بلدا لم يصبها أى تغير ، ولكن مصر – كما وجدها هيرودوت من قبل – لا يمكن أن تكون أى شىء إلا مصر .

وقد تتغير الطبقات العليا من المجتمع – فرعون ، وخليفة ، وباشا ، أو رئيس وزراء قد يعتنقون أساليب أجنبية – ولكن سمات البلد وكيانها تبقى دون تأثر ، ومن ذلك الإحساس بالدوام والاستمرارية . إن هناك تتابعا يربط المعابد الأثرية بأحفاد الفلاحين

الذين شيدوها ، إن تراث مصر القديمة والعصور الوسطى شاهد على وجود سرمدى الآن ومنذ قديم الزمن ، وهو نتاج للنهر وللإنسان الذى يعيش على شاطئيه .

وعلى الرغم من أن البطالسة ، والخلفاء ، والأتراك ، والبريطانيين قد اختفوا إلا أن المسافر إلى مصر لم يتخلف ... وقد شق اليونانيون الطريق وجاءت وفود منهم يشبعون حب الاستطلاع الإغريقى ، واندفع الرومان بعد ذلك ليشاهدوا المناظر وينحتوا أسماءهم على الآثار العامة ، وفى العصور الوسطى أبدى فون سوحم (Von Suchem) تفجعه من أن يرى ببغاءً صغيرا أخضر على النيل ، وقام أنطونيوس مارنر بزيارة قبور القديسين الإسكندريين فى خشوع كبير ، ولعل أول زائر من الجزر البريطانية والذى نعرفه باسم الراهب بلاجيوس الذى وصل فى عام ٤٠٠ ميلادية ليبسط مذهبا جذاباً يمكن تلخيصه فى جملة ، « إنى أستطيع إذا كان يجب » ولم يترك مثل هذا الاعتقاد الجرىء مكانا للسماحة الإلهية ، ووجد بلاجيوس نفسه متهما بالهرطقة . وبمرور القرون ولزيادة حركة سياحة الحج إلى القدس مر بريطانيون آخرون ، وفى القرن الرابع عشر قام اثنان على الأقل بزيارة الضريح المسيحى القديم ، كنيسة أبو سراج فى القاهرة ، ثم جاء الصليبيون والبريطانيون يدفعهم غرض أقل براءة ، وفى حصار دمياط عام ١٢١٨ مدح جميع الرجال إيرل تسنسر ، وفى عمليات سلب الإسكندرية الجائرة (الطائشة) عام ١٣٦٥ كان أول من يتسلق جدرانها رجل إسكتلندى .

ولم تصبح مصر مكانا يسهل للمسافر البريطانى الوصول إليه إلا عند تكوين شركة الليفانت فى عام ١٥٨١ والتى تعد انعكاسا للروح البحرية والمشروعات التجارية التى أرسلت الشعب الإليزابيثى حول العالم، والتى أدت إلى إنشاء قنصلية فى القاهرة، وقد تسلق الشاعر جورج صانديز الهرم الأكبر فى نفس العام الذى انتقل فيه شكسبير إلى سترا تفورد ، وقام جون جريفر الذى أصبح فيما بعد أستاذ علم الفلك بقياس الأهرامات فى عام ١٦٣٠ ، وقد نشر صانديز وصفه لأسفاره وأعيد نشره تسع مرات ، وقبل نهاية القرن السابع عشر نشر عشرات من الإنجليز وصفا لمصر والإسكندرية ، ولم يمض وقت طويل إلا وأصبحت مصر امتدادا للجولة الكبيرة (Grand Tour) التى كانت جزءا من تعليم الشباب الأرستقراطى الإنجليزى ، ووصل إيرل ساندويتش فى يخته الخاص إلى الإسكندرية عام ١٧٣٨ ، وفى حوالى نفس التاريخ وصل إلى معبد فيلة ريتشارد بوكوك القسيس الذى تأثر جيبون بعلمه وهيبته ، وبنهاية القرن الثامن عشر كان حوالى عشرين سائحا إنجليزيا قد نقشوا أسماءهم على الهرم الأكبر قبل أن يبدأ الموسم الشتوى .

إن المسافر حر ، إنه لا ينتمى إلى أى مجتمع خاص أو جيل معين ، ولا يوجد أى روتين يخنقه ، لقد هرب من الوجوه والأماكن المعتادة وهو يتمتع بوهم أنه ليس محدودا بالزمن ، ومن ثم تصبح شخصيته مرنة ، يمكن أن تمتد من قرن إلى آخر ، إن بعض الدول تمنح ذلك الاحساس بالحرية أكثرمن غيرها ، ومصر بفترتها الزمنية الضخمة وتبايناتها الغريبة تأتى فى أول هذه الدول ، إنها هدف المسافر لفترة ألفى عام وأكثر .

وخلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان المسافر إلى مصر يمزج الرومانسية بالراحة أكثر مما فعل فى أى وقت من الأوقات ، بل قد يقوم أناس مجهولون بصيد التماسيح ، ويعودون محملين بالمومياوات ، بينما استمتع الأشخاص ذوو المكانة بتناول الطعام – وهم متربعون على الطريقة التركية الفخمة بجوار أبى الهول – من أطباق ذهبية ، وهم يستمتعون بمنظر السياس حفاة الأقدام يرتدون حللا من المخمل الأحمر ويهرعون أمام مركباتهم ، ويقوم المضيف المجامل بترتيب سبق لكى يكتشف أحد هواة علم المصريات مقبرة كانت قد أعدت فى اليوم السابق ، ولن نجد أى زوار سافروا فى النيل فى مثل الفخفخة التى سافر بها أمير وأميرة ويلز فى عام ١٨٦٩ ، ففى يوم ٦ فبراير وكان ضيوف الخديوى إسماعيل تركوا القاهرة ومعهم تابعوهم – ومن ضمنهم سير صموبل باكر الذى كان قد سافر فى النيل من قبل فى ظروف أقل راحة ليكتشف منابع النيل – فى ست سفن زرقاء وذهبية اللون ، وكان ديكورها الداخلى مناظر لأنتونى وكليوباترا ، وكانت كل سفينة تقطر خلفها صندلا محملا بضروريات الحياة ووسائل الترف بما فيها أربعة خيول وحمار فى بياض اللبن لركوب الأميرة وثلاثة آلاف زجاجة شمبانيا وأربعة آلاف زجاجة نبيذ أبيض فرنسى ، ويصحبهم أربعة طهاة فرنسيون ومغسلة ، وحين عاد الزوجان الملكيان فى منتصف مارس كان معهما ٣٢ صندوق مومياوات وتابوت ضخم وولد يتيم فى لون الشيكولاته عمره عشر سنوات اسمه على أحمد ، أرسل بعد ذلك إلى كلية ساندرنجام العسكرية ليقدم القهوة فى ملابسه الوطنية .

وعلى الرغم من أنه فى هذه الأيام لا يسمح الوقت أو المال باستعمال ذهبيات تسافر على مهل إلى النوبة إلا أن أواخر القرن العشرين له مزاياه ، ولم يعد موظفو قناة السويس يحصلون على مياه الشرب من الهند على متن السفن كما كانوا يفعلون ، وأصبح الكافيار يصلهم عن طريق الجو ، وعلى الرغم من أنك لن تجلس متربعا على الأرض وتتناول طعامك من أطباق لأن المرافق قد تحسنت ، وإذا كنت تستطيع أن تهضم الفنادق عديمة الشخصية مثل ناطحات السحاب فهناك العديد منها ، والاتصال

سريع وسهل ؛ إذ يمكنك أن تطير من الدلتا إلى السودان فى خلال ساعات، فإن القرن العشرين يقدم تاريخ خمسة آلاف عام فى أقل مجهود وبلا مشاكل.

وما يبقى بعد ذلك يعتمد على ذوق المسافر وذكائه ، ففى استطاعته أن يستمتع بالمناظر الطبيعية أو يفسدها ، وأذكر أن «جنتلمان» فى شهر العسل نظم عرضا للصواريخ النارية فى معبد الكرنك ، وكتبت إحدى وصيفات أميرة ويلز فى مذكراتها « شاهدت معبدا قديما آخر ولست متأكدة من اسمه » إن مثل هؤلاء الأشخاص مكانهم بلدهم ، أما البعض الآخر فإن كل يوم فى مصر يضيف إليهم تجارب سيتذكرونها دائما ، إن مصر ستترك بصماتها عليهم ، كما فعلت مع العديد ممن سبقوهم ، وجمال مناظرها الطبيعية والأهمية الفائقة لتاريخها سيثير عجبهم ، ولن تختلف حكاياتهم كثيرا عن تلك التى أثارت خيال بونابرت ، يراقب المسافر الحديث الشمس وهى تحرق الشبورة من فوق النيل عند الفجر ، وحين ينصت المرء إلى أغانى المراكبية ، وحين يقف فى ظل تمثال ممنون ، ويسير فى معبد حتشبسوت ، وحين يشاهد الشفق فى وسط مقابر الخلفاء وضوء القمر فوق الصحراء ، حين يفعل المسافر ذلك فإنه سيسترجع ما قاله إنجليزى منذ ٣٥٠ عاما « يا لك من نهر من أعظم الأنهار وبلد من أعظم البلاد » .

الفصل الثانى

الواحة المنظمة

لم تتحد الجغرافيا والمناخ من قبل لإنتاج مثل هذا البلد غير العادى؛ فإن المساحة المستطيلة التى تمثل مصر وتابعتها الصغيرة سيناء ، تبلغ أكثر من مليون كيلو متر مربع تقريبًا ، وعلى الرغم من ذلك فإن مساحة الأرض الخضراء فيها لا تتعدى ٤٪ من مساحتها ، حيث تنحصر الزراعة فى وادى النيل والدلتا - وهى المثلث الغنى الذى يقع بين القاهرة والبحر . وتقدر المسافة بين الشلال الأول فى أسوان عبر الوادى إلى رأس الدلتا (٤٥٠ ميلا) ، ومن هناك إلى البحر المتوسط (١٠٠ ميل) أخرى ، بينما نجد أن ساحل الدلتا طوله (١٥٠ ميلا) . أما الأرض الخضراء - الوادى والدلتا - التى يشبه شكلها زهرة اللوتس ، فهى تحوى سكانا عددهم فى ازدياد مطرد يقتربون من ٤٠ مليونا ، بينما نجد أن الصحراء التى على جانبى الوادى - التى أطلق عليها القدماء لفظ « الأراضى الحمراء » لكى يميزوها عن الطمى الغامق المغذى للزراعة ، وتبلغ مساحتها حوالى ٩٦٥,٠٠٠ فدانا - يسكن فيها ما يزيد على ٤٠٠ ألف مواطن .

ولم يكن الأمر كذلك دائما ، فقد كان الوادى فى العصور الغابرة أرضا رخوة موحلة تغطى معظم الدلتا ، التى تكونت فيما بعد من طمى النيل المنساب إلى البحر . وقد عاش أجداد المصريين القدماء فى الهضبة المجاورة والتى كانت فى ذلك الوقت منطقة حشائش طويلة (سفانا) لا تختلف كثيرا عن مرتفعات شرق أفريقيا ، وهى موطن الفيل والأسد والجاموس وحمار الوحش ، وعلى أطراف ما يطلق عليه اليوم بحر الرمال العظيم ، توجد أشجار متحجرة لا عدد لها تكوّن الغابة المختفية .

ثم جاء بعد ذلك زمن الجفاف وتحولت المرتفعات إلى صحراء ، وواجه شعب الحشائش الطويلة (السفانا) تحديا خطيرا غامروا - بلا شك فى البداية فى خوف وتردد باللجوء إلى وادى النيل ، وكانت جائزتهم فى النهاية هى الحضارة المصرية ، فقد قاموا تدريجيًا بتجفيفه وتنظيمه ، ثم زراعة كل من الوادى والدلتا ، وكانوا فيما قبل الألفية الخامسة قبل الميلاد ، يشيدون أماكن لدرس القمح وتخزين الشعير ،

ويغزلون أتيالا بدائية ، أمَّا فى الألفية الرابعة قبل الميلاد فكانوا يصنعون أوانى جميلة من الحجارة والفخار المزين ، كما كانوا ينقبون عن الذهب والمرمر فى تلال الصحراء الغربية ، واخترعوا الكتابة الهيروغليفية ، وفى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق. م. اتحد الوادى والدلتا فى مملكة واحدة وبدأ تاريخ الأسرات الطويل .

وكانت طبيعة المملكة غريبة فى أنه كان لها العديد من صفات الواحة ، فكانت الخصوبة الخضراء تحيط بها الصحراء ، معزولة عن النوبة عن طريق الأميال الستة للشلال الأول ، ومنفصلة عن البحر المتوسط عن طريق سلسلة من البحيرات (مريوط وأدكو والبرلس والمنزلة) ومستنقعات من الصعب الدخول فيها ، وحتى القرن الأول الميلادى كان حيوان (سيد قشطة) يصطاد فى منطقة الدلتا ويرسل إلى روما للألعاب ، وكانت البلد أيضا واحة بمعنى أنها كانت مناسبة للإنسان ، وازدهرت أشجار النخيل والدوم والكتان والأذرة والعدس والبصل والكرات والتين والبطيخ ، وعلى الرغم من أن الزيتون لم يجد له مكانا إلا أن السمسم ونبات الخروع كانا مصدرا لإنتاج الزيوت ، ثم جاءت صناعة النبيذ فى الألفية الثالثة ، وجاءت على الأرجح من سوريا أو سيلزيا . وازدهرت صناعة النبيذ حتى أنه فى أثناء المملكة الجديدة (١٥٨٥ – ١٥٦٨ ميلادية) كانت قوارير النبيذ تحمل خصائص الكروم وموعد قطافها وأطلق عليها « ميتر دى شتى » ، ومع أن الخيول والجمال وصلت مؤخرا للبلاد (وكانت حيوانات أنبل من الجاموس المستورد فى مصر الحديثة) إلا أن الحمير والخنازير والماعز والخراف كانت إما موجودة أصلا أو جاءت خلال الأسرات الحاكمة ، وكان النهر يعج بحوالى مائة وتسعين نوعا من الأسماك ، من ضمنها سمكة النيل الكبيرة ، وكانت بحيرات الدلتا تحتوى على كميات كبيرة من سمك البورى ، وفى ذلك الوقت – وكما هو معروف الآن – كانت هجرة الطيور الكبيرة التى تمر فوق وادى النيل مصطحبة معها أعداداً هائلة من الأوز والبط التى كان يتم صيدها داخل شباك ، أو عن طريق رمى جناح الطائر بالعصى الرفيعة ، وكانت أشجار الجميز والسنط والسرو المحلية تنتج أنواعا من الأخشاب قليلة الجودة ، وعلى الرغم من عدم وجود أخشاب ممتازة فقد تم سد هذا العجز عن طريق التجارة ، وفى غياب الأمطار كان اقتصاد البلاد يعتمد على ما يجود به نهر النيل ، فالأمطار فى القاهرة لا تتجاوز بوصتين فى العام ، وفى مصر العليا نسبتها لا تذكر ، ففيضان نهر النيل السنوى كان البئر الذى لا ينضب والذى يعتمد عليه فى تغذية الواحة ، فالفيضان الذى يسببه المطر السنوى المدرار على هضبة الحبشة البعيدة كان يصل إلى ممفيس حوالى منتصف شهر يونيو ، وكان النهر فى

ارتفاع مستمر حتى منتصف سبتمبر ، وبعدها يبدأ فى الانخفاض ، وكان هذا الوقت فريدا ومناسباً ، ففى بلاد ما بين النهرين (العراق) كان نهرا الفرات ودجلة يفيضان فى الربيع ، فتنبت المحاصيل وقت انحسار الماء (الجزر) ، إلا إذا استخدمت الطرق الصناعية فى ريها ، أما وادى نهر النيل فقد كان على عكس ذلك ، إذ تزدهر المحاصيل أثناء فصل الشتاء المعتدل بعد أن ينحسر الفيضان فى فصل الخريف ، وتحصد المحاصيل فى الربيع ، وأحياناً يكون نهر النيل شديد الكرم ، فتجتاح الفيضانات العالية القرى وتدمر الوادى .

ولم تكن السيطرة على النهر باتباع نظم معقدة للرى وتوزيع المياه إلا فى بداية حقبة ما بعد الأسر الحاكمة ، وسرعان ما صاحب ذلك نظام تخزين المياه (حفظ المياه) الذى كان ضروريا فى سنوات القحط ، عندما كان الفيضان غير متكافئ ، وكان لترويض نهر النيل نتائج اجتماعية وسياسية على درجة كبيرة من الأهمية ، فقد أدى ذلك إلى ضرورة التعاون والشعور بوحدة المصلحة ، وهذا أدى بدوره إلى النظام الدقيق الكامل الذى يعد من سمات قوة مصر القديمة .

وقد ساهم نهر النيل – كوسيلة للاتصال – مساهمة فعالة فى اتحاد الواحات ، ولعل وسائل الانتقال والاتصال الداخلى لم تكن جديرة أن يعول عليها بسهولة فى أى مكان آخر من العالم القديم ، وهنا أيضا لعب الحظ دورا قاطعًا ، فقد كانت الرياح السائدة تهب من البحر المتوسط – أعلى النهر – لمدة أسابيع دون انقطاع ، إلا رياح الخماسين التى كانت تدوم خمسين يوما أثناء الربيع وتجلب معها العواصف الرملية المخيفة من الجنوب ؛ إذ كانت تسهل على المراكب أن تتحرك بسهولة تامة شمالا على النهر إما شراعيا أو مع التيار ، وكانت المراكب الشراعية البسيطة الفعالة – والتى وصفها الكاتب راسكن بأنها تشبه جناح العصفور – تستعمل منذ القدم ، ولحسن الحظ أيضا كانت صناعة المراكب والحبال فى بلد تنقصها ألواح الخشب ، تقوم على ورق البردى الذى يكثر فى منطقة الدلتا .

وكانت الواحات التى تم تزويدها بوسائل الاتصال الداخلى تتمتع بحدود آمنة ، فكانت قبل وصول الجمال إلى مصر – حوالى القرن الرابع قبل الميلاد – تمثل فاصلا منيعا للغزاة ، وكتدبير احتياطى ضد احتمال غزوات قبائل البدو أقام الفراعنة مراكز فى الواحات القريبة بالصحراء الغربية (على الرغم من أن واحة سيوة التى تقع وراء بحر الرمال الأعظم والتى تستغرق خمسة عشر يوما من السفر للوصول إلى الدلتا – لم تكن مأهولة حتى نهاية فترة الأسر) .

وفى الصحراء الشرقية – حيث كان النيل جنوبى مدينة قنا يبعد عن البحر الأحمر بحوالى مئة ميل – كان لدى الفراعنة سببان هامان لتزويد الآبار بحاميات ؛ أولا : لأنه كان يتحتم عليهم تحريمها على القوات المعادية . وثانيا : كانوا فى حاجة إليها لاستغلال مناجم الذهب الحكومية فى تلك الجبال التى لم يكن بها ماء . وعلى ساحلى الدلتا كانت البحيرات والمستنقعات تمثل خطا دفاعيا مثل الرمال فى الجنوب ، وكانت نقطة الضعف الوحيدة هى المعبر إلى آسيا : خليج السويس . وهناك أقيمت الخطوط الدفاعية منذ المملكة القديمة (٢١٩٤ ـ ٢٦٧٦ ق . م .) ودعمت كثيرا فى الألفية التالية فى العصر الإمبراطورى ، وحيث إن التنظيم الداخلى كان قويا فقد كانت الواحة يصعب اختراقها ، ولم يحدث أن اخترقت الخطوط الدفاعية خلال الألفى عام التى جاءت بعد توحيد المملكة إلا مرتين ، وفى كل مرة كان الغزاة يستفيدون من القلاقل الداخلية ليعبروا خليج السويس .

وفى انتقالهم لمواطنهم فى الواحات انتعشت حياتهم على الهضبة المتاخمة ، فقد جاءوا – كما قال هيرودوت – لينعموا « بالفاكهة فى الحقول بمجهود أقل من أى شعب من شعوب العالم » ، كانوا أكثر ثراء وراحة من جيرانهم ، وكانت ظروف معيشتهم كما رأينا تشجع فيهم روح الجماعة والقيم الاجتماعية ، وفى الأشهر الثلاثة التى كانوا ينعمون خلالها بالراحة من الزراعة ، والتى كان يوفرها لهم فيضان النهر ؛ أصبحت لديهم الفرصة للقيام بالأعمال الجماعية الطموحة : المعابد والمقابر التى كانت أبنية أثرية للأديان أو للفراعنة الذين كانوا يعتبرون ممثلين لهم ووسطاء لدى الآلهة ، وكان سكان الدلتا – وإن لم يتمتعوا بقوة الإبداع والتصور – ذوى حدب وعقلاء ومجدين فى متابعة حياة منظمة مستقرة ، وكانوا متفائلين ينظرون إلى النواحى السعيدة للأشياء ، ويقدرون عائلاتهم وبيوتهم وحدائقهم ؛ ولعله لم تكن توجد أمة أوقفت نفسها على زراعة الحدائق مثلهم ، وإذا كان مجتمعهم الدائم الترابط – والذى كان فى بعض الأحيان يبدو راسخا لا يتغير – يجعلهم يفرطون فى المحافظة ؛ فإنهم لم يكونوا يلاحظون ذلك ، وكانوا – بما لديهم من شعور بتفوق بلادهم وعاداتهم – ينظرون إلى الأغراب وطرق معيشتهم بنفورهم المعتاد .

وعندما كانوا يتنازلون وينظرون إلى ما بعد حدودهم ويزورون شعوبا أقل منهم حظا ، كان ذلك بغرض الحصول على السلع التى لم تكن كثيرة ، والتى كانت تفتقر إليها بلادهم ، وأهم هذه السلع الأخشاب ، وكانت أقرب الغابات فى لبنان ، وقبل منتصف الألفية الثالثة أقاموا محطة (مركزا) للتجارة فى بيلوس (Byblos) ، ومن ثم

قامت مجموعة من السفن لا يقل عددها عن أربعين سفينة بالإبحار وهى محملة بالأخشاب أيام الأسرة الرابعة ، وكان البحث عن الخشب أول ما جعل المصريين يبحرون فى البحر المتوسط ، وبدأت التجارة مع لبنان تزدهر حيث ظلت السفن تروح وتجيء فى البحر لأكثر من ألفى عام ، وكانت تعرف بسفن ببيلوس ، وعلى مر الأيام أصبحت ببيلوس مصرية تماما ، تقتنى معابدها وكهنتها لخدمة الجالية من تجار النيل وموظفيه ، وأمكنهم الحصول على الفضة من مناطق بعيدة ، كما كانوا يحصلون على النحاس بصفة دائمة من قبرص ، وكلها معادن لم تكن موجودة فى مصر .

وفى وقت لاحق للارتباط ببيلوس بدأت البعثات التجارية عبر البحر الأحمر إلى بلاد بانت (التى عرفت فيما بعد بالصومال) ، وجاء ذكر إحدى هذه البعثات فى النقوش المرسومة على جدران معبد حتشبسوت فى طيبة ، وكان الفراعنة يحصلون من بانت والبلاد القريبة على نباتات المر والبلسم والقرفة وعلى اللؤلؤ والعاج ، ولتسهيل هذه التجارة تم حفر قناة تصل بين الدلتا والبحر الأحمر وذلك فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ، واستكملت فى عهد الحكم الفارسى فى القرن الخامس (أعيد بناؤها بعد مائتى عام فى عهد بطليموس ميلاديفوس) ، وفى عصر البطالمة تمكنوا من دراسة الرياح الموسمية (المونسون) وبذلك تمكنت مراكبهم من الوصول إلى الهند حاملة صبغة النيلة والفلفل والحرير ، ولم يكن تسديد ثمن هذه المستوردات وشحن شجر الأرز اللبنانى الثمين يمثل أى مشكلة لبلد يزخر برواسب الذهب فى الصحراء الشرقية ، وباحتكار نبات البردى وبثروة فى قماش الكتان ، وفى سنوات تالية بمخزون فائض عن الحاجة من القمح .

وفى خلفية التاريخ الأوروبى حيث شهد قرن أو اثنان ازدهار قوى عظمى وأفولها فإن استمرارية حضارة الواحات كانت دائما مبعثا للعجب ، ومما يدعو إلى الدهشة أكثر من ذلك أن المصريين لم يكونوا شعبا عسكريا ، وكانت قوتهم تكمن فى نظامهم وحدود بلادهم ، ففى خلال ٢٥٠٠ عام لم يقوموا إلا بثلاث معارك حربية كبيرة ، وكلها كانت فى النصف الثانى من الألفية الثانية : موقعة مجدو وقادش ضد الحيثيين والانتصار الباهر لرمسيس الثالث فى الدلتا ضد رجال البحر ، وعموما فإن المصريين لم يكونوا ينظرون إلى المحاربين بأى اهتمام ، وكان تقديرهم واهتمامهم مقصورا على الإداريين وموظفى الحكومة والعمال المهرة ، ولم يخاطر المصريون بالاتجار مع البلاد الأخرى إلا بعد مجيء الإمبراطورية الجديدة (١٠٨٥ - ١٥٦٨ ق . م .) لتبادل التجارة وليس للسعى وراء الانتصارات ، وكانت فكرة التنافس مع حياة وادى النيل المستقرة

تغلب عليهم وتسحرهم ، ومما يدعو للسخرية أن طموحات فراعنة الأسرة الجديدة الإقليمية هى التى ساهمت فى سقوط المملكة ، ولأنهم لم يستطيعوا تجنيد شعبهم المسالم بأعداد كافية فإنهم كانوا يعتمدون بشكل متزايد على الجنود المرتزقة من السوريين والليبيين ، وعندما انفصمت عرى الوحدة الداخلية فى نهاية ذلك العصر جاء الليبيون من الصحراء الغربية - لاشك ليزوروا مواطنيهم - واستقروا فى منطقة الفيوم وأسسوا أسرتهم الأجنبية الحاكمة .

وكان توحيد مصر (٣٠٠٠ ق . م.) - الذى يرجع فى الواقع للملك مينا هو تحقيق وحدة الوادى وليس الدلتا ، وكأن القوة الدافعة الخلاقة والمنظمة تأتى من الوادى ، وإلى يومنا هذا يقال بالإجماع : إن نشاط البلاد ينحصر فى جنوب القاهرة ، وبمجىء عام ٢٦٧٦ ق . م . أدت الوحدة إلى ظهور دولة قوية متكاملة تماما تعرف باسم المملكة القديمة ، واتخذت الحضارة المصرية الشكل الذى ظل طويلا دون أن ينفصم ، وكانت ممفيس هى عاصمة الدولة القديمة التى أعطت للعالم أول مبانٍ منحوتة فى الحجر فى سقارة وفى أهرامات الجيزة ، وظل استقرارها ثابتا لما يقرب من ٥٠٠ سنة وهى مدة كالمدة التى تفصل الغزو النورماندى والأرمادا تقريبا .

وجاء الانفصال فى مصر - كما يحدث دائما - فى ضعف الإدارة وزيادة نظام الإقطاع فى الأقاليم ، وأتاح هذا الانفصال للغزاة أن يعبروا خليج السويس ، وتمزقت المملكة ، وبدأ لأول مرة عصر المتاعب ؛ ففى بلد يتحرك فيه بندول الساعة ببطء بقيت المتاعب لمدة قرنين من الزمان ، ولكن عندما عادت الوحدة فرضت من الجنوب مرة أخرى ، واستعاد المجتمع صفاته المصرية الصميمة ، وفى عصر الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة استطاع الفراعنة - الذين كان يطلق عليهم باستمرار أسماء أمنمحتب وسيزوستريس - أن يجعلوا حقبة المملكة المتوسطة (١٩٩١ - ١٦٧٠ ق . م.) حقبة الحكم المستقر الذى دام ٣٠٠ سنة .

ومما عجل بمجىء عصر المتاعب الثانى الذى لم يقتصر على الانقسام الداخلى ، مجىء أسلحة جديدة من آسيا كالحصان والعربة التى لم تكن معروفة للمصريين ، واستطاع الهكسوس على ظهور خيولهم أن يكتسحوا الخليج من عام ١٧٠٠ إلى ١٥٧٠ق.م . وأقاموا عاصمة فى الدلتا ، ومرة أخرى استردت وحدة البلاد بدءا من الجنوب وعاد النمط التقليدى فى المملكة الجديدة ، وكما حدث فى المملكة القديمة التى استمرت حوالى خمسمائة سنة (١٥٦٨ - ١٠٨٥ ق . م .) وكانت آثارها المعروفة هى

مقابر طيبة ومعابدها ، شهدت هذه الحقبة أيضا العصر الإمبراطورى فى التاريخ المصرى ؛ عندما امتد حكم فراعنة مثل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى حتى نهر الفرات ، ولم تصل ثروة البلاد والاستقرار الواضح لحضارة وادى النيل إلى أعظم مما وصلت إليه فى تلك الحقبة ، ولكن الطابع الذى استمر أكثر من قرنين من الزمان بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد كان قد بدأ فى الانحلال ، وضاع الترابط تحت حكم الرعامسة ، وفى القرن العاشر جاء الليبيون ليحكموا مصر .

وعلى الرغم من أن أنماط الحضارة القديمة استمرت تدعمها محافظة الشعب والنفوذ والهيبة التى وهبها لهم ماض عظيم ورائع ؛ فإن مصر أصبحت فيما بعد محط أنظار الغرباء ، فتنافس الأحباش والآشوريون والفرس على مملكة الفراعنة ، ففى القرن الرابع ق . م . كان مكتانيوس الثانى – آخر حاكم لمصر من أبنائها – قد فقد كل أمل وفر إلى الجنوب ، وبعد ذلك بقليل فى عام ٣٣٢ ق . م . جاء الإسكندر الأكبر وأصبحت مصر فى عهد البطالسة والمسيحيين والإسلام شيئا مختلفا تماما ، فقد ترك هؤلاء آثارهم وتماثيلهم المهيبة فى الإسكندرية وفى أديرة الصحارى وقاهرة العصور الوسطى المتألقة .

وعندما بدأت البلاد أول اتصال لها بالعالم الحديث فى وقت بونابرت وجيوشه كانت مصر القديمة قد أصبحت أسطورة ، وكان إعادة اكتشاف الحضارة الفرعونية المتتالى خلال المائة وخمسين عاما التالية من الإنجازات فى علم الأركيولوجى (الآثار) ، وإذا كان لأوروبا أى دين عند المصريين فإنه من حق دينون وبلزونى وشامبليون وليسيوس ومن جاء بعدهم ، وحتى الآن فإن جوهر الماضى باق لأن طبيعة الأراضى وسحرها هو نفسه لم يتغير من عهد مصر القديمة ، وعلى الرغم من مرور آلاف السنين فإن فلاحى وادى النيل هم ممثلون لقبائل الفراعنة ويشتركون معهم فى كثير من الفضائل .

الفصل الثالث

طبيعة الوادى

استطاع نهر النيل أن يحفر مجراه خلال صحراء قاسية صارمة خالية من الأشجار والمياه ، وبذلك خلق طبيعة مصر ؛ فبين التلال العارية يواصل الحزام الأخضر – الذى يضيق ويتسع مع تعرجات النهر – مسيرته مع مجرى النهر ، وعلى الرغم من أنه يمتد أسفل القاهرة إلى الدلتا التى تشبه المروحة فى شكلها ، فإن هذا الشريط الوافر النماء والذى يقع بين أرض جرداء غير مأهولة ، يمثل أرض مصر الأصلية ، وأحيانا ما يبدو ذلك وكأنه جاء بالصدفة : فهذه الخضرة التى تنحصر مصادفة بين بحر لا نهاية له من الرمال كان من السهل ألا يكون لها وجود ، ومع ذلك فوجودها شىء معقول فإننا نستطيع أن نرى كيف جاءت ، وإذا ما نظرنا من الصحراء نستطيع أن نتعرف على البلاد ، فمنظر واحد يكفى لأن يكشف لنا عن طبيعة أرض مصر .

ووسط هذا المنظر الجميل يسير النهر بطيئا ، وعلى صفحته مركبان أو ثلاثة تعكس قلاعها البيضاء أشعة الشمس ، بينما تصل مياهه المحملة بالطمى إلى الحقول على جانبيه ، ثم تتفرع القنوات من المجرى الرئيسى للنهر كالشرايين ، كل يتجه إلى وجهته ، ومن هذه الشرايين تتفرع شرايين أصغر ، وفى النهاية تسير بطيئة لتتفرع إلى نهيرات منفصلة ترفع مياهها السواقى لتروى حقلا أو قطعة صغيرة من الأرض .

وتسير كل هذه المياه فى تعرجات ملتوية خلال رقع متعددة الخضرة ، وتبدو أكثر غزارة إذا ما قورنت بالصحراء المجاورة ، وتتعدد فيها ألوان عيدان الذرة الصفراء أو الأرض ذات اللون الأقحوانى البنى التى لم تنبت فيها المحاصيل بعد ، وتبدو غابات من أشجار النخيل وكتل من أشجار الجميز كما لو كانت أنماطا مصغرة دقيقة على نموذج جغرافى ، وتمتد طرق موحلة صغيرة تعلو مستوى الحقول على طولها وعرضها ، بينما تظهر على الحزام الأخضر – على مسافات صغيرة – قرى من الطمى الداكن ، تتوسطها أحيانا مئذنة أو واجهة منزل مطلية بالجير لأحد كبراء القرية ، وعلى مدى أربعمائة وخمسين ميلا من المناظر الطبيعية تبدو المدن الصغيرة – التى لا تزيد على قرى مزدحمة – شاذة تماما ، يمتد خلالها قضبان القطار فى حياء شديد .. إن المياه والحقول غير المسورة وأشجار النخيل والقرى هى اللب الحقيقى لكل هذا .

وعلى مدى ستة أشهر من فصل الشتاء ترتفع الشمس فى كبد السماء ، وتسير فى رفق واعتدال مستمرين ، فهذا هو الفصل الذى اعتقد المصريون القدماء أن الإله رع فى مراكبه السماوية يقوم بأداء واجباته بحرص واهتمام – فلا هو يلفح (يحرق) المحاصيل ولا يسمح للرياح الشمالية أن تعيث فيها الفساد lieeuse ، والشمس عندما تبزغ من جهة الصحراء الشرقية تمتص قطرات الندى ، ثم تسير يوميا عبر الوادى فى سماء لا تكسوها الغيوم ، وفى المساء تغيب وراء التلال الليبية فتخلق بذلك مشهدا ختاميا غاية فى الروعة عند مغيبها الذى يأخذ بالألباب ، ويوما بعد يوم يتكرر هذا الموكب ، ويوما بعد يوم يتكرر هذا المشهد ،فإذا ما نظرت عبر الوادى تعرف أن هذا المنوال الدائم هو أصل المنظر ، وأن رسوخ الشمس ينعكس على دوام المنظر ، وأن الأرض تتغير قليلا من جيل إلى جيل ، بل من قرن إلى آخر ، إن تربة مصر نفسها لها صفة الدوام كما لو أنها تقاوم التجديد ، أما النمط الزراعى وغابات النخيل والقرية المنبسطة والطرق الموحلة فكلها دائمة خلال الفصول ، وعلى الرغم من أبراج الكهرباء الجديدة فإن الوادى الذى يمتد تحتها هو نفسه وادى الفراعنة ، وترى أمامك مصر القديمة يحفظها بلسم الشمس وغريزة السكان المحافظة الفطرية ، فلم يحدث خلال تاريخها الطويل أى تغير فى سقوط الأمطار أو فى نمو غابات وقطع أشجارها ، ولا وجدت أسوار تحيط بأراضيها الزراعية ، كل ما هنالك ظهور بعض الطرقات الجديدة كشرائح عبر الحقول – وحتى إلى يومنا هذا فإن الصناعة لم تؤثر على سلامة الأرض ، فإذا عاد المصرى القديم بعد ألفى عام قبل الميلاد من مناجم الذهب فى صحراء البحر الأحمر فإنه يرى نفس الأرض المزروعة ، بينما قوافل العرب التى تسير متثاقلة لتصل إلى حافة الوادى كانوا سعداء ليروا نفس المياه ونفس قلاع السفن البيضاء .

إن النيل والشمس هما اللذان يمدان الوادى بأسسه الثابتة ومواده الخام ، ويقوم الفلاح بتنظيمه مضيفا إليه نكهة تجعله أكثر مصرية ، فحقوله تشبه محصولاتها قطعة من الفن الغنى بالألوان ، وسمَته هى سمَة القرية ، ومن سماته أيضا ملامح المناظر المصرية بحيويتها الجوهرية ، فهذه الأشكال الصغيرة التى تتحرك دون أن يسمع لها حس أسفل الوادى هى جزء لا يتجزأ من المنظر ، أكثر من سكان أى بلد من البلاد القريبة ، وفى الحقول لا يكتمل أى تشكيل (صورة) دون أن يكون فيه الرجل ودابته ، فكما فى الهند نجد صورة الطفل على جاموسته الهندية بينما تنام الأسرة تحت شجرة الـ (Banyan) حيث نرى الجمل والحمار يرعيان بجانبهم – ونرى أجسادا نصف عارية تنحنى على التربة بينما يقوم الرجل برفع الماء إلى الحقل ، ففى كثافة سكانية

غزيرة يعتمد ستون فى المائة منهم على الزراعة وتتفاعل الطبيعة مع الإنسان بشكل كبير ، ولكن المنظر المصرى إنساني للغاية ؛ فدائما ما نرى أجساما مستغرقة فى العمليات الزراعية البسيطة المتتالية وفلاحة الأرض ، ليس لها – فى كثير أو قليل – تلك الجاذبية الرومانسية التى ترتبط بالريف الأوروبى ، فهذه الفدادين التى تم حرثها ثم أعيد زراعتها لا تشبه بالمرة تلك الغابات الصغيرة وأحراش البرقوق الشائك والوديان الصغيرة التى تحيطها الأشجار والأراضى المغطاة بالأعشاب ، فهنا لا تجد الزهور البرية قدما مربعا واحدا تنمو فيه بجوار المحاصيل ، وهنا لا يوجد قفار ولا مشاركة فى الوحدة ، بل نجد حيزا محدودا من الأرض الخصبة أحسن إعدادها لتكفى الأعداد الكبيرة من السكان .

ومع ذلك فإن هذه الأرض المغطاة بخطوط الغرين هى من أكثر بقاع العالم جمالا ، وهذا الجمال يرتبط بدقتها ، فالمنظر المصرى لا هو واضح ولا هو عاطفى ولكن يمتاز بجاذبية جمالية ، وله صفة الفن التجريدى الذى يشتق من الاختلاف التام بين الشكل واللون والرونق ، فتكوين الألوان الكثيرة والنسبية فى الطرق والقناة والبعد الثالث فى أشجار النخيل وأكثر من ذلك نوعية الضوء – كل ذلك يجتمع يعطى تأثيرا فى غاية الرقة . وفترة ظهور الشمس فى كبد السماء وقت الظهيرة هى الوقت الوحيد الذى يضيع فيه هذا المعنى لساعة أو اثنتين ، ولعل الأراضى الواسعة فى إيست إنجليا هى أول مقارنة تتبادر إلى الذهن ، فهناك نفس السماء الواسعة ونفس القنوات ونفس أجمات الأشجار والأزهار التى توجد فى مصر ، ولكنك فى مصر لا ترى الغيوم الرائعة المتراكمة التى ترتفع فى الأفق والتى تميز مناظر إيست إنجليا ، ويراودك الشعور بأن المنظر أقل ثقلا وأكثر تنويعا وأكثر رقة ، فإن مصر لها نفس تكوين إيست إنجليا ولكن بالجو العام والضوء الذى نراه فى منطقة برفانس .

ولهؤلاء الذين يستجيبون لجمال زهرة الخليج المزهرة تحت سماء زرقاء صافية ، لا يجدون متعة فى مصر إلا ساعة الغروب فقط ، فالألوان تتغير على مدى ساعة واحدة من تركوازية إلى خضراء ثم بنفسجية وذهبية ، وكثيرا ما تُخَلِّف هذه الألوان أثرا عظيما وإن كانت فى الغالب تعطى صورة مصر مرسومة على بوست كارد : بريق المياه ، وصورة انعكاس الأهرام ، والنخيل تحت سماء جميلة منمقة ، إن هذا المنظر الرومانسى تخلقه دقة المناظر المصرية خلال ساعات عشر من كل يوم .

وتتفاعل الألوان من أسوان حتى الإسكندرية ، ويتكرر تفاعل الأشكال بصورة مستمرة تحت ضوء شمس مصر الصافى ، ولكن هذا التكرار لا يبعث على الملل فالرونق والنمط فى تغير دائم ، وإن لم يكن ملحوظا . ومن وقت لآخر تكون تلك التغيرات الأكثر وضوحا ، حيث تأخذ حقول القطن فى الدلتا مكان عيدان قصب السكر القرمزية فى مصر العليا .

وإذا كنت فى قارب من قوارب النيل فإنك تتذوق التغيرات القريبة فى المناظر ممتزجة بحركة الإنسان التى تمثل جزءا لا يتجزأ من المنظر العام ، فترى الفلائك التى تشبه جناح الطائر تمر أمامك محملة ببالات القطن وقصب السكر والأوانى الفخارية ، أو ترى الرجال وقد لفحتهم الشمس يلبسون الأُزُر ويلقون بشباكهم من قواربهم الصغيرة المتأرجحة ، وعلى الشاطىء يمر العاملون فى الحقول فى زى من النسيج الخشن : النساء بقاماتهن المعتدلة الرائعة يحملن الأوانى أو الصرر على رءوسهن ، والفلاح بجاروفه ، بينما تتمايل الجمالُ المحملة بتلال من البراسيم ، والحمار بأذنيه الكبيرتين يسير فى صبر ، والأطفال يجرّون المواشى الموكل إليهم رعايتها ، وحجمها يفوق حجمهم عشرات المرات ، ودائما ما نرى المحاصيل المزروعة ووراءها عن بعد مجموعات النخيل .

فإذا سرْتَ مع مجرى النهر ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ، تجد أن الصورة ليس لها بدايَة ولا نهاية ، فالملبس الخشن على ضفاف النهر يتكرر بشكل دائم ، والطفل على ظهر الجاموسة ، والفلاح وهو يعمل جاهدا ليرفع الماء – كلها صور رأيناها مئات المرات ، ولابد أنك رأيت طائر أبو قردان الأبيض يسبر غور طمى النهر وأضم سيقان النباتات الحمراء التى خلقها من لسان البحر ، وفى المساء تنصت إلى البحارة يتغنون بنفس الأغانى وتشاهد نفس أشجار النخيل فى خلفية من السماء القرمزية ، وطوال ملاحظتك للنهر فإنك سترى ذلك الصف من التلال الصحراوية أحيانا تبدو بيضاء ولا لون لها ، وأحيانا أخرى رملية رمادية أو أرجوازية ووردية عند غروب الشمس ، وأحيانا تبدو فى جفافها الذى بلا ملامح وكأنها تجثم على الوادى ، وقد تبدو طيبة وواقية تضيف إلى المنظر ترابطا وتركيزا ولكنها دائما موجودة ، دائما متكررة ودائما مثل أى شىء فى طبيعة مصر ملائمة وحتمية ، وأخيرا قد يأخذك التفكير فى أن مركبك لم تتحرك مطلقا ، وأن تقدمك ليس إلا خداعا ووهما ، وأنك لم تفعل أكثر من مشاهدة التأثير المتنوع للضوء والألوان على منظر واحد .

وطمى النيل والقرى ليست إلا استمرارا للحقول ولكن فى أشكال مختلفة ، ومن الصعب القول : أين تبدأ القرية ؟ وأين تنتهى ؟ وما الأرض التى صهرتها الشمس ؟ وما الجدران التى تعرضت لأشعتها ؟ وإذا ما انهار بيت – وهذا كثيرًا ما يحدث ؛ لأن المصرى بطىء فى عمليات الإصلاح – فهذا يعنى أن الأرض تعود إلى الأرض مرة أخرى ، إن الارتباط القوى بين الأرض والقرية يعكس العلاقة بين الطبيعة والفلاح نفسه ، إن أحدهما مكمل للآخر ، وإذا لاحظنا التفاعل بينهما أثناء النهار فسيبدو لنا مغزى كل منهما بوضوح .

فعند الفجر تصحو الطبيعة ويتحرك الضباب فوق القناة وتأخذ أشجار النخيل شكلها ويكتسب الزرع لونه فى صمت ، وعلى الرغم من جمال ذلك المنظر إلا أنه إنجاز معدل وساكن ، وينقصه نشاط الإنسان وحركته ، فلا توجد أجسام منحنية فوق المحصول ، ولا يبدو المنظر مصريا ، ولا يتحرك إلا البط الذى يطير أعلى السماء ، وعند شروق الشمس فقط يصبح المنظر منتميا للفلاح ، ولا يتحقق التوازن إلا فى وجوده ، ومن كل قرية يتدفق الرجال والنساء والأطفال إلى عملهم فى الحقل على ظهر الجمال والحمير أو على أرجلهم ، كل اثنين معا أو مع العائلة أو فى جماعات ، وتصحبهم معداتهم وغذاؤهم ، وفى الممرات الضيقة يتدافع الإنسان مع الحيوان ، ويتبادلون الحديث وتقطع نكاتهم سكون الصباح ، وكلما تقدم الموكب قل العدد ، إذ إن كل حقل يستوعب صاحبه أو عائلته ، وسرعان ما تخلو الممرات ثانية وتبدو الأجسام المألوفة وهى تنحنى على التربة ، وتصبح البيوت لا تحتوى على آدميين فقط – فكل ثلاثة أو خمسة فى حجرة واحدة – بل على حيوانات مكتظة بالقرب منها ، تصبح هذه البيوت شبه خالية ، فقد عرى ذلك الرحيل الصباحى القرية ولم يبق فيها إلا العجائز والكسالى ، وحينئذ ستعرف أن حياة هؤلاء الناس ليست فى القرية مطلقا ، بل فى الحقول ، إنهم ينامون فى منازلهم ولكنهم يعيشون وسط محاصيلهم .

وترتفع الشمس ويعالجون التربة والمياه بطرقهم الخالدة ، ففلاح يحرث الأرض بمحراث الفراعنة بينما يسير خلفه أبو قردان الأبيض ، تماما كما نشاهد فى الرسوم الجدرانية فى سقارة ، ونرى فلاحا آخر يستعمل الشادوف فى رفع مياه غنية إلى تربة غنية ، وتستكشف المياه طريقها عبر تيه من القنايات حفرتها الأيدى والمعازق ، وبالقرب يقف حمار فى انتظار التعليمات كما يفعلون دائما ، ووراءهم نرى الرجال والنساء يقفون بين عيدان الذرة ، إنهم يجمعون السنابل ، ومع أنك تستطيع أن تسمع أصواتهم فإن رءوسهم فقط هى الظاهرة للعيان ، وعلى حافة القناة يقوم الرجال بنقل

التربة ، بعضهم يلبس الجلابية الطويلة التى بهت لونها الأزرق ، والسلال على رءوسهم هى صورة طبق الأصل من السلال التى كان أجدادهم يحملون فيها التربة لفراعنة الأسرة الثانية عشرة ، وعلى حافة أشجار النخيل الباسقة والمحملة بعناقيد التمر شىء أبيض اللون ، إنها إزار أبيض لرجل معلق فوق شجرة النخيل وهو يجمع البلح فى فترة الصباح ، وكلما أنزل ثمرة قامت زوجته بجمعها ، وتحت شجرة banyan فى وسط الحقل يلعب طفلان وبجانبهما جاموستهما المربوطة ترعى وسط دائرة من البرسيم .

فإذا نظرت مرة أخرى ترى الحركة قد توقفت ، فالماء فى القناة ، وطائر أبو قردان الأبيض لا يتحرك ، ولا شىء يحرك أوراق الذرة الخضراء ، ولكنك تسمع طنين الحشرات ، والشمس ساطعة فى كبد السماء دون أن تكون هناك ظلال ، والناس مستغرقون فى النوم بعد أن تناولوا وجبة من الفطير أو الأرز ثم تمددوا بجانب محاصيلهم ، إنهم ينامون فى كل حقل وعلى حافة كل قناة ، ويبدو أنهم خروا دون روية فى أى مكان ومعداتهم حولهم ، بعضهم يغطى وجهه بمنديله ، بينما يرفع البعض الآخر ذراعه من حين لآخر كما لو كان يبعد الذباب عن وجهه ، والأطفال يرقدون تحت الشجرة وقد وضع كل منهم رأسه بين ذراعيه ، وحتى الحمار بعد تردد وتفكير حط على الأرض فى تهالك وراح فى النعاس ، أما الجمل فهو المخلوق الوحيد الذى ركع مثل أبو الهول وأبى أن يغمض عينه ، ومن وقت لآخر ينظر باستخفاف إلى الراقدين حوله ! .

ويمضى الوقت وينهض الجميع - الإنسان والحيوان - كما لو كانوا يبعثون يوميا - وتمسك الأيدى بالجاروف ، وينهض الحمار مترنما ، وتخضع الجاموسة للمحراث ، وتغطى الأصوات مرة أخرى على طنين الحشرات ، وتسمع صرير الساقية وهى ترفع الماء، ويستمر الحال حتى المساء وقد تشابك الأشخاص والعمل مع منظر الأرض ، ثم عندما تستقر الشمس فوق الصحراء يفيض المكان بنور جديد عندما تميل الشمس بشكل درامى كله جمال وروعة فى الألوان ، وتميل الشمس إلى الغروب أحيانا بتباه صارخ ، وأحيانا أخرى فى روعة فرعونية حقيقية ، وفى لحظة يغمر المنظرَ نور جديد فتتغير طبيعة المكان وتذوب ملامحه المختلفة ، ولم يعد هذا هو ما يريده الفلاحون ، فينادون أولادهم ويحلون رباط الماشية ويحملون أنفسهم وجرارهم على ظهور الحمير ، ويسيرون على مهل على جانبى القناة قاصدين بيوتهم فى القرية ، ونرى العصافير تضرب الماء بجناحها ، بينما تهيم سحابات من الهاموش فى الهواء ، وعلى الجانب الآخر للنهر نرى معدية سوداء اللون محملة فى غير مبالاة بالرجال

والحيوانات ، تتسلل نحو الجانب البعيد للنهر ، ونرى مجاميع الجاموس الهندى ذوات اللون القرمزى تنزلق إلى الماء واحدة بعد الأخرى ، وفجأة لا نرى الحيوانات الطبيعية التى نعرفها ولكن جماعات من الحيوانات البدائية البرمائية المخيفة الشكل .

وهكذا يجتمع الكل فى دائرة مترابطة من القرية ، حيث تحت المصابيح تبتعد الصحراء والقرية ، ونرى طيور البوم تتنقل على منظر واهٍ غير مأهول ، بينما طائر البلشون يخرج مرفرفًا من مخبئه النهارى ، ويأتى الثعلبُ من الصحراء إلى الماء ، ويبدأ ندى مصر الكثيف فى السقوط ، ونرى حارس الحقل يجلس وحيدا فى الليل بجانب النار التى أوقدها ، وقد لف حول كتفيه عباءة طويلة من وبر الجمال أو التحف بمعطف ثقيل إلى أن يبزغ نور الفجر .

وهكذا ترى أن هذا هو الجدول اليومى ، وتأتى التفاصيل فيما بعد : الطيور الأليفة وصوت يمامة النخيل ينساب فى رقة وحلاوة من بعيد أو قريب ، وحسن سلوك الكلاب التى فى لون الرمال ، وغياب الأزهار البرية ، وآثار الحفاة على الطرق المتربة أو المبتلة ، والألوان الباهتة التى تقارب فى لونها لون الجلباب الأزرق الباهت ، وعيدان الذرة الصفراء ، ثم الصوت المتكرر يأتى من مكان ما بالحقل - لمزمار ولأناس وأطفال يترنمون- فإذا ما أمعنا النظر نرى النخيل فى لون أخضر باهت كلون شجرة الزيتون، واليمام ينعم على عروشها ، ولا يمكن لأحد أن يصل إلى داخل غابة النخيل أو إلى غياهب اللون الأخضر الذى نراه هناك ، ونرى الأشجار بجذوعها الرشيقة المتمايلة متباعدة ودائما ما يتخللها الضوء حتى أنها لا تبدو أكثر بعدا ولا أكثر انعزالا فى قلب الأشجار منها على حافتها المتموجة المتعرجة .

والنخيل فى مصر ليس رمزا للسلام ، وإنما هو رمز للعمل الشاق ، فبالنسبة للفلاح ترمز طبيعة الأرض للعمل . إن النظام الرتيب فى حياتهم يعكس تاريخهم الذى يرتبط بالسادة أصحاب الأرض، وجلابيب النسوة السوداء - التى تبدو كما لو أنها تبعث فى النظر السرور - تبدو كما لو أنها ثوب حداد ، والثيران التى تدير الساقية وترفع الماء من النيل وهى معصوبة العينين ، تتحرك فى تثاقل مثل أصحابها الذين يكدون عاما بعد عام دون أن يصلوا إلى مقصد إلا الموت ، غير شاعرين بأهميتهم الحيوية فى مشروعات الزراعة . وخلال الحقول يسمع صرير الساقية التى لا تلين تروسها بالزيت أبدا ، وقد تختلف النغمات ولكن الصوت موجود دائما يملأ الهواء فوق النهر ، وتتسلل إلى الزرع تلك التنهدات الدائمة التى لا حول لها ولا أمل ، تشبه شكوى الأرض ورجالها . فاللحن الحزين لا مفر منه .

الفصل الرابع

سكان الأرض

تبدو القرى المصرية الغزيرة النمو كما لو أنها ألقيت من علو فى الأزمان الغابرة فى أكوام ترابية ، ويقال : إن عدد القرى كان أربعة آلاف قرية كلها مكتظة بالسكان ، ويسكن فى كل منها من ألفين إلى ثلاثة آلاف نسمة ، ولكن فى بلد أرضها ثمينة كمصر فإن قرى قليلة تتخلف عن الركب ؛ فهى مترابطة تحيط بها الحقول الخضراء التى يثابر الفلاح على زراعتها فتبدو كموج أخضر قبالة جدران من الطوب النيىء ، وكانت هذه القرى فى أبهى صورها فى الأيام الغابرة ، فكانت تبدو مرتفعة عن الأرض التى تحوطها الأنقاض المتنامية عبر القرون ، وكل منها محاط بغابة من أشجار النخيل . وعندما كان النهر يفيض حتى الأرض فى عمق قدم أو اثنتين كانت تبدو كجزر مكتظة بالسكان تحيط بها أشجار النخيل ، ولكن إذا أمعنا النظر لا يكون التأثير مواتيا ، فالقرى من تراب الأرض ، ومبانيها من الأرض ، والأكواخ المختلفة بغير نظام ، ومليئة بالفجوات والثقوب حيث لا يمكن التفرقة فيها بين مساكن الناس ، ومأوى الأنعام يبدو كما لو أن الحشرات هى التى قامت ببنائه وليس الإنتاج الواعى اليقظ للإنسان .

والبيوت معظمها عبارة عن أنواع بسيطة مصنوعة من الطمى الذى جففته الشمس بنيت بها الجدران ، أما من الداخل فإن الأرضيات والجزء المرتفع من الحجرة الذى ينامون عليه ، هى أيضا من الطمى المحروق ، وكذلك المصطبة التى دائما ما تكون بجوار الجدار خارج الكوخ ، أما داخل البيت أو فى الفناء الصغير فى الخلف فنجد كانونا من الطوب المصنوع من الطمى ، وتلك المساكن المبنية فى متاهات من الأزقة والدروب مكدسة معا ، وعلى مدى الفصول الأربعة تسطع الشمس المحرقة فتجفف الجدران المتداعية وتكثف من الطمى على الأرض ، وأحيانا ما يتصدع أحد الأكواخ وينهار ، فتجمع الأنقاض من جديد ويصنع منها طوب جديد فتقوم البيوت جنبا إلى جنب فى الجو المحمل بذرات الغبار ، هذه هى الأحياء القديمة التى تشبه جرة الأرانب ، والتى تتكرر مع كل جيل كالأجيال التى تسبقه بشكل متقن دون تغيير ، ففى هذه القرى والبيوت ومنذ بدء التاريخ ولدوا وتزاوجوا ودفنوا بطقوسهم واحتفالاتهم .

ومن الغريب أن هذا المنظر الرتيب يعنى الكثير ، فالقرية الواقعة على القناة غالبا ما تعطى نفس الانطباع ، وفى معظم القرى نرى تفصيلات لا يمكن نسيانها كشجرة الجميز التى تنسدل على قبة ضريح شيخ صالح ، أو أسراب الحمام التى تنتشر من داخل برج من أبراج الحمام التى يقيمها كل مجتمع ريفى ، لتحلق تحت سماء صافية ، أو واجهة مطلية بالجير كخلفية للأجسام المتحركة ، أو مجموعة من النساء يقفن على شاطئ النهر ، ثم هناك منزل العمدة وبعض أغنياء القرية ، ويتكون من طابقين يضيفان إلى التنوع المعمارى الكثير ، وهناك أيضا المسجد المتواضع الذى له فى أكثر الأحيان مئذنة واحدة ، يؤذن منها خمس مرات يوميا مؤذن غالبا ما يكون ضريرا . كل هذه الطقوس تبدو للمشاهد غريبة فى هذا الحشد الكبير من الأكواخ المصنوعة من الطمي ، وتبين التعقيدات التى لم يوح بها لأول وهلة ذلك الطوب المصنوع من اللبن .

المساء هو أكثر الأوقات زحاما بالقرية ، ففيه تعتم الأشكال ، ويختفى الغبار مع الضوء الخافت ، ويتزاحم الفلاحون فى الطرقات فى طريقهم من الحقول ، ويفيض الزقاق الضيق بالحياة المتسارعة ، وتصبح المصطبة المبنية خارج الجدران الأمامية للبيوت – التى تكون خالية وقت الظهيرة – مركز التقاء الجماعات الصغيرة ، يتحدثون ويتجادلون أو يحملقون فى تكاسل فيما حولهم ، بعد أن أنهكهم العمل طوال اليوم ، وترى ترزى القرية يجلس واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى فى مدخل بيته ، يخيط الملابس فى الضوء الخافت كما لو كان يعمل بطريقة اللمس ، بينما يجلس حلاق القرية على الأرض وأمامه أحد الزبائن وهو ينهى عمل يومه ، أما الباعة المتجولون فيتنقلون وهم ينادون بصوتهم الأجش على بضائعهم من خردوات غير ذات قيمة والخضروات والأقمشة القطنية ، وعلى النقيض من ذلك نرى النسوة متواريات عن الأنظار ، يقمن بأعبائهن داخل البيت كما لو كن يتحاشين الضوء ، بينما تذوب ثيابهن وطرحهن السوداء فى الظلام الحالك .

أما فى مقهى القرية فالمصباح يُضَاء – وإن كانت الكهرباء فى ازدياد الآن – وتمتلئ المقاعد المصنوعة من نبات السمار بالجالسين يتبادلون النارجيلة ، ويشربون القهوة المصرية فى فناجين صغيرة ، وهذا الجمع فى الواقع هو من طقوس الرجال ، ويبرز النور الساطع كل ما يدور فى هذا المكان ، فنرى الإيماءة تأخذ طعما دراميا ، بينما يستحوذ وجه القصاص على عيون السامعين ، وتنبعث الضحكات العالية لتجد طريقها خلال الأكواخ حتى تصل إلى الحقول المهجورة ، وعلى الرغم من أن ملابس الممثلين متواضعة فإن المسرح تقليدى وقديم ، ويظهر معظم الممثلين فى جلاليب طويلة

من القطن زرقاء اللون أو مقلمة أو بيضاء بأكمام طويلة ومفتوحة عند العنق – وقد يكونون حفاة الأقدام ، والكثيرون يضعون فوق رءوسهم الطواقى يلف بعضهم حولها العمامة البيضاء ، أما هؤلاء الذين امتزجوا بالمدن فيلبسون إلى جانب ذلك معطفا أوروبيا قصيرا فوق جلابيبهم ، ولكن الشيخ العجوز فى قفطانه الحريرى ووشاحه الملون هو الذى يستحوذ على الانتباه ، ويكتسب أهمية كبيرة بهذا اللباس الحريرى .

وإذا تفحص أى شخص غريب هذه الوجوه ، فإنه سيشعر بشعور مبهم يذكره بأحداث ماضية ، ثم يتذكر فجأة أن الشفاه القديمة المزمومة فى سكون حول أنبوبة الغليون ، وأن الشاب الذى تبدو صورته الجانبية من خلال الضوء – كلها من مصر القديمة . إن الوجوه تبدو مستنسخة ، ولعل الصورة المنحوتة على جدران المعابد هى صورة طبق الأصل من هذه الوجوه ، ففى هذا المقهى الريفى كلهم من الفراعنة .

ويحرك أحد الرجال مقعده إلى الخلف وينظر إلى الطريق ، يبدو لأول وهلة أنه مختلف ، ولكن سرعان ما يغدو النموذج أكثر وضوحا ؛ فالجبين الأملس وعظمة الأنف المستوية والرموش الكثيفة الطويلة وعظام الخد البارزة والرقة الأنثوية ، كلها مألوفة ، وكذلك الجسم المتناسق المتوسط الطول وإن كان يبدو أقصر ؛ نتيجة للقدم المفرطحة غير المستقيمة التى تشققت وتصدعت من جراء الوقوف فى الحقول المشبعة بالماء ، وحتى الجلباب يرجع إلى أيام الأسرة السادسة ، ولا نجد هنا أيا من التثاقل الذى يتصف به السود ولا النشاط الزائد أو العضلات المتورمة ، ولكن نرى الاقتصاد فى كل شىء ، والمقدرة الزائدة التى نراها على العمال الكادحين على جدران المعابد ، ولا نجد إلا القليل من الجمال بالمعنى المسلم به .

فلا نرى الصحة المتألقة التى تصاحب الفلاحين ، ولكن من جهة أخرى نرى ملاءمة أجزاء الجسم بنسبة لا تتمتع بها شعوب كثيرة ، فالرجل الأوروبى لا ينظر إلى الفلاحين بالقدر الذى يستحقونه ، والفلاحات بشعرهن المجعد ووجوههن التى سجلت خمسة وعشرين عاما من عمرهن لم تعد لها أية جاذبية عاطفية ، ومع ذلك فهن يتمتعن بقوام رائع حتى وإن كن قد تقدم بهن العمر ، ويتميزن بأياد رفيعة دقيقة لا تتمتع بها نساء الغرب .

وتتوارث بعض السمات فى الطبع دون تغير على مر القرون ، والتباين الطريف بين ما هو طيب وما هو سيئ ، وهو الذى يصنع الفلاح المعاصر حين يماثل الماضى القديم ، وعلى ذلك فإن الفضائل الأسرية التى يشعر بها المرء فى الحياة المصرية

فى الأسرة الثانية عشرة – قبل أن تتطور إلى طموحات الإمبراطورية – كلها توارثها الفلاحون ، فيقول النبى محمد عليه الصلاة والسلام : « إذا أرضيت والديك فإنك ترضى الله » ، والعلاقات الأسرية السعيدة ، وحب وولاء وعاطفة الأطفال ، كلها ملامح بارزة للقرية المصرية ، ولكن فى الوقت نفسه فإن الفلاح له نفس العناد التقليدى والمحافظة على طابعه الإقليمى ، فما زال مستعدا لأن يقتنع بأن الأنهار لابد أن تجرى شمالا كما يفعل نهر النيل ، ومثل أجداده قد ينسب إلى نهر الفرات « أن فيضانه عكسى والماء يذهب ضد التيار وليس مع مجرى النهر » ،، والفلاح المصرى ورث عن آبائه الافتقار إلى الفضول الذهنى ، وهى صفة تميزت بها حضارة النيل ، فأجداده القدماء قلما يستخدم الفلاح عقله إلا لأغراض عملية ، وعلى الرغم من مكره فإن بديهته الحاضرة وذاكرته القوية التى تتنافى مع الواقع قلما تؤرق أفكاره ، ومن الأشياء التى ورثها عن الماضى البعيد – ولو أنها قد ترجع بعض الشىء إلى العهد الإسلامى – هى التمسك بالطقوس الأخلاقية واحترام الغير ، وهى صفات تبدو كأثر باقٍ من شريعة مستفيضة للسلوك الاجتماعى الذى دائما ما يتطور فى أى دولة عظيمة ، والمجاملة المصرية معروفة دائما ، وكما يشهد السائحون فإن الغرباء يجدون احترام الغير ، والكياسة تبدو كالأزهار التى نبتت فى أرض صالحة من الطمى والعرق ، كل هذه الفضائل – إلى جانب ما يتحلى به الفلاح من كرم وتواضع وهدوء فى حضور الأغنياء – صفات جذابة ، فالفلاح لا يتردد فى أن يدعوك إلى تناول القهوة معه ، ويظل غير مهتم تماما بالوضع الاجتماعى وتميز الطبقات ، ففى أيام الأتراك اعترف أحيانا أن هناك رؤساء ولكنهم ليسوا سادة ، حتى وإن كان ينتابه الخوف منهم فإنه لم يترك عنده انطباعا ، واليوم فإنه يلقى الأغنياء وذوى النفوذ دون أن يرتبك ، فالهوة التى كانت تفصل بينهم أصبحت بالنسبة له وليدة الصدفة ، وهذا الافتقار إلى الخضوع والتذلل الاجتماعى يتمثل فى الطريقة السائدة لإلقاء التحية ، فالكبار هم الذين يبدأون التحية ، وهكذا فراكب الحصان يحيى راكب الحمار ، والأخير يحيى السائر على قدميه ، وهو يحيى المرأة ، وهكذا يستمر الترحيب إلى أن ينتهى من الطفل إلى الحيوان .

والروتين اليومى للفلاح والدائرة الضيقة لأفقه – والتى لم تُتِحْ له حتى وقت قريب أن ينظر بنظرة خاطفة إلى حياة أكثر اختلافا أو ازدهارا – يسهمان فى عنصر آخر من عناصر صفاته ؛ وهو بشاشته الدائمة ، والضغوط الكثيرة فى عالمه لا تمنع ابتسامته الدائمة ، فهو لا يعرف إلا مسراته وممتلكاته ، وهذا يعنى ربه وأولاده ونساءه ومحاصيله ، أما ما وراء حقوله وقريته فهو عالم مجهول ، وعالمه المحدود مثل عالم

الطفل ينعكس فى سماته الطفولية ، فنكاته وسعادته التى لا يمكن كبح جماحها تنتقل فجـأة إلى الغضب والثـورة ، أما جرائم الفلاح فهى كجرائم الطفل ؛ تحدث فى ثورة لا يمكن التحكم فيها ، ويجىء الندم بعدها بقليل .

إن الدائرة الضـيقة من بيئتـه قد تولد العداوات الشخصية ، والتى غالبا ما تكون مثل خصـومات تلاميذ المدارس غيـر منطقية ، وتؤثر على حياة القرية وقد تؤثر على نطاق أوسع ؛ فتنعكس أحيانا فى عداوات شديدة بين القرى ، ونفس الدائرة الضيقة ورؤية الفلاح المحدودة تجعله يركز كل نشاطه فى اتجاه واحد ، أى فى زرع المحاصيل وبيعها ، وفى الوقت نفسه تترك لديه انطباعين : الحصول على الأرض والحصول على المال ، وما عدا ذلك فكل شىء عنده مكانته ثانوية .

والشخصية التى رسمناها لذلك الرجل المجامل المرح السريع المحـب للتـملك ، لا تتفق مع الدور الذى لعبـه الفلاح خلال التـاريخ ، فعلى الرغم من طبائعه المحافظة ومزاجـه المتقلب ، فمثل هؤلاء الناس خلقوا لإحراز النجاح ، ولأنهم أبناء عبيد المال فكان لابد أن يكونوا كالحيوانات الضـارة ؛ لذلك فقد ظلوا قرابة خـمسـة آلاف سنة يحرثون الأرض .

ولكن هناك جزء من مقومات هذا المزيج من الأهمية بمكان لم نذكره بعد : فعلى الرغم من صفات المصرى الإيجابية فإنه يتسم بالسلبية ، وقد يقابل أعظم المصائب بمنتهى اللامبالاة ، وعموما فإن قوة تحمله المتواضعة فى وجه الاضطهاد والاستبداد هى جزء من التاريخ ، وهو الذى ابتكر فكرة الإيمان بالقضاء والقدر قبل ظهور الاسلام بوقت طويل ، وهذه قد تؤدى إلى عدم الحماس ، وقلما يصنع الفلاح أو ينظم أى شىء، وإنما يستمد قوة شخصيته من طبيعة الأرض حوله .

ويقال إن تلك السلبية القديمة فى الفلاح ترجع إلى تدينه ، ثم لحالته الصحية ، ولفيضان النهر الذى لا يمكن التكهن به ، وكما لاحظ هيرودوت - الذى كان أكثر من يلاحظ من الرحالة - أن المصريين كانوا أكثر تدينا من الأجناس الأخرى ، والحماس الدينى الذى أشـار إليه هيـرودوت لم يتـرك وادى النيل أبدا ، ولم تتـغيـر صـفـتـه على الإطلاق ، فالمصرى سواء كان مـريدا (تابعا) لرع أو المسيح أو النبى محـمد ، فإنه كان دائما يتمسك بالطقوس الدينية أكثر من تمسكه بعقيدته ، وأن التعاويذ السحرية المتبعة فى دينه لعبت دورا جوهريا فى عقيدته كما فعل اعتقاده الراسخ بالعالم الآخر . أما المصرى القـديم فإن جـواز سفره الوحيد أثناء محاكمته الإلهية كان مقولة محددة

وسهلة ، أما أحفاده المسلمين فإن خلاصهم يعتمد على عقيدة مشابهة فى هبات الله ، فجهوده الأخلاقية وأنشطته على الأرض لا أهمية لها ، فقد رقد فى أحضان الآلهة ، وفى النهاية لا يريد سعادة أكثر من ذلك ! .

أما أحواله الصحية فإن نسبة كبيرة من الفلاحين مصابون بمرض مستوطن لعين هو البلهارسيا ، وقد ظهرت آثاره فى مومياوات الأسرة الثانية عشرة ، وبذلك يكون الفلاحون قد تعرضوا لويلات هذا المرض لمدة أربعة آلاف سنة ، ولا يظهر الأثر المدمر للبلهارسيا واضحا أمام خبراء إحصائيات الموتى ؛ لأنه مرض يعمل بطريقة خبيثة ضارة تؤثر فى سمات الذين تصيبهم ، فالجرثومة تعيش على القواقع فى المياه الساكنة فى القنوات والحقول ، حيث يضطر الفلاح للعمل وهو يحمل معه الخمول والأعياء .

وقد ساعدت طرق الرى الحديثة - التى تعد سببا لإنتاج محاصيل أكثر على حساب صحة الإنسان - على انتشار المرض ، ومنذ وقت قريب بدأت السلطات تهتم جديا بمحاربة المرض ، فإذا كانت الطرق الحديثة والعقاقير تستطيع القضاء على الميكروب ، ففى استطاعتها أن تؤثر بشكل رائع على شخصية الفلاح ، إن قوة التحمل ملحمة يمكنها أن تخلق شعبا مختلفا ، ولعلنا نتصور ما سيكون عليه الحال ؛ إن أهل الصعيد فى بعض أماكن مصر العليا - حيث يكون حدوث البلهارسيا منخفضا نسبيا - سيكونون مضرب المثل فى القوة والنشاط .

ودائما ما يقال : إن الشعوب التى تنشأ فى وديان الأنهار الكبيرة ويعتمد أبناؤها فى حياتهم وكسب قوتهم على نزوات الفيضانات التى لا يمكنهم السيطرة عليها، يصبحون سلبيين ، فإنهم لا يستطيعون أن يعدلوا قوى الطبيعة التى تجىء بالأرض الخصبة أو المجاعة ، إن حياتهم حياة استبداد ، والمحاصيل قد تمنح لهم أو تمنع عنهم ، ولا فضل لهم فى ذلك . فعندما لا يفى المجهود والتنظيم بأى غرض فإن الناس يجابهون الأحداث بإحساس متبلد وبلا مبالاة ، ويتعلمون أن يواجهوا الكوارث دون تذمر ، وهكذا كانت مصر لآلاف السنين ، ولكن نهر النيل الآن أصبح من السهل التكهن بما سيحدث له .

لقد استطاع مشروع ناصر السد العالى أن يروض النهر ، فمهما كانت الآثار الجانبية للفيضان فادحة - وفى الغالب هى كذلك - فإن الفلاح لم يعد يعيش تحت نزوة الفيضان ، لقد أصبح عالمه أكثر منطقية ، وبمرور الوقت سوف يكتشف أن الرؤية والجرأة لها قيمة جديدة ، وستصبح السلبية فى عداد الماضى .

وبينما ينتظر الآثار البطيئة للتغير ، يبقى الفلاح نفس المزيج من طيبة القلب والمرح وسرعة البديهة والغضب ولين العريكة واللامبالاة التى كان يتصف بها فى عهد الفراعنة ، وهو أيضا يحتفظ بعاداته الوطنية وأسلوبه المتميز ، ومنها الضفائر المستعارة التى تنزل حتى وسط المرأة أو الشرائط المتهدلة على خدودهن ، وهى غالبا إحدى العادات القبلية ، ثم تعدد الزوجات ، ومعاملة البنت التى تمت طهارتها بطريقة وحشية ، ولو أنها مستغربة بالنسبة لطريقة تفكيرنا إلا أنها تعتمد على طريقة تفكير ملموسة ، ويستطيع الفلاح أن يقدم الأسباب لتصرفاته هذه والتى قد تبدو لنا مناسبة .

وهناك جانب من حياة الفلاح يعكس عالما قلما يكون مفهوما لنا ، فهو بالرغم من ازدياد التعليم عالم منكمش ، ومع ذلك فأحيانا ينسدل الستار وتختفى معالم العقل والمنطق ، فالقرية التى يغطيها الطمى - كما لو كان كفاحها وصراعها الدنيوى غير كاف - تخضع للجن ، فهذه المخلوقات الطاغية متقلبة الأطوار مع أنها تعيش تحت الأرض فى مجتمع منظم خاص بها ، تمارس ممارسات يؤذوا بها من يراد أن يوقع بهم ، ومهما كان الثمن فلا يجوز إثارة العداوة مع الجن . ولأنهم مخلوقون من النار ويحبون ذلك العنصر الذى هم منه ، فإن الفلاح قبل أن يلقى بأى شىء فى النار يحرص دائما على أن يستعين بالله فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » وبذلك ينذرون الجن الإنذار المناسب ، وبالمثل يجب الحرص على ألا يبتل الجن ، فقبل أن يصب الفلاح الماء على الأرض يقول : « السماح يا مبروكين » وإلى جانب الجن فإن القرية تؤازر جيشا من المخلوقات غير واضحة المعالم ، غالبا ما تكون شريرة - لأن كل فلاح يعتقد أن له طيفا شبيها به - وهذه الروح التى تذكرنا بـ « بالكا » عند قدماء المصريين تولد وتموت مع الإنسان الدنيوى . وتعتبر الغيرة إحدى الصفات الظاهرة لهذه الأرواح ، وتسبب جهودهم للإيذاء والتغرير بالأطفال من أولاد أشباههم قلقا بالغا للفلاحين .

وفى عالم الخيال هذا يلعب صانع التعاويذ والساحر دورا كبيرا دون شك ، فهو حليف الفلاح الذى وسعه إبطال القوى الخفية والعين الحاسدة ، وإلى سنوات قليلة كان الإقبال عليه كبيرا ، وكان يستعان به في حل كل مشكلة ، ويدفع له ثمن تعاويذه وتعازيمه ، وكان الفلاحون يلتمسون منه العون فى عمل شراب سحرى للحب ، والأحجبة التى تعيد الصحة ، والرموز التى تضر بالعدو ، وكانت النساء يسرن سبع مرات حول الهرم الأكبر أو يسافرن للقاهرة للمس إحدى المومياوات فى المتحف ابتغاء الخصوبة ، وكان الرجال يستخدمون الوشم لعلاج النظر أو آلام الأسنان ، وكان الفلاح

يأمل فى محاربة قوى الشر التى كانت حوله فى أوقات النهار عن طريق العمل الشاق ، وكان يجمع قصاصات الأظافر والشعر المتساقط باهتمام زائد ، اعتقادا بأن من خلالها يستطيع العدو أن يخضعه لقوى مؤذية ، وحتى اليوم نجد أنه أحيانا يعلق على باب بيته أشياء مختلفة مثل قرون الكباش ، بينما ترتدى زوجته عقدا من الخرز الأزرق منعا للحسد ، وتجرّ طرف ردائها الأسود فى التراب لتمحو آثار قدميها . ومن الطبيعى أن يكون الأطفال- وهم أغلى ما يملكه الفلاح - عرضة للحسد ولتأثير العين ، ومن ثم فهم يحتاجون إلى حماية خاصة ، ولما كان الولد هو أول رغبة للفلاح ومن ثم يتعرض لأكثر الأخطار فلحمايته من الحسد ؛ كان يلبس الطفل الذكر ملابس الأنثى لمدة عام أو عامين ، ولكن سواء أكانوا بنين أو بنات فلابد من حمايتهم بأحجبة خاصة ، ومنذ بدء الحمل عند المرأة يقوم الفلاح بحماية الطفل المنتظر عن طريق السحر ، ويقابل ولادة الطفل بتلاوة تعاويذ خاصة ، بل قد يبدأ الطفل حياته التى سوف يقضيها فى الزراعة بلف جزء من الحبل السرى ، مربوط فى قطعة من القماش حول عنقه .. كل هذه المناورات بين التعاويذ ومقاومتها ، وهذا العالم الغريب من الأشباح والمخاوف ، قد يكون على بعد بضع مئات من الأمتار من محطة ضخ كهربائية أو على مرمى نظر النوافذ المضاءة لعربات النوم التى تحمل السياح إلى الأقصر ! .

الفصل الخامس

حياة القرية

إن كلمة فلاح معناها الرجل الذى يفلح الأرض ، وتنطبق هذه المقولة على الفلاح المصرى تماما ، فالأرض هى حياته ، وهو غالبا ما يكون فقيرا أو حتى جائعا لكنه ينظر إلى الحقل بابتسامة كبيرة ، ومنذ الإصلاح الزراعى الناجح فى الخمسينات ونزع ملكية الأراضى الكبيرة أصبحت هذه الحقول ملكا له ، وإذا لم تكن ملكا له فإن القانون هو الذى يقدر الإيجار الذى سيدفعه ، ولكن حيازة الأرض غالبا ما تكون صغيرة بشكل يدعو إلى الإشفاق ، لأن تعداد السكان تضاعف فى السنوات الأربعين الماضية ، وأصبح الضغط على الأرض شديدا ، وفى أيام حكم محمد على كان يعطى كل فلاح أمين ثلاثة من الأفدنة ، ولكن بنهاية القرن التاسع عشر انخفضت ، وأصبحت الأفدنة بالنسبة لعدد الرؤوس بعد زيادة السكان ٦٥,٪ وبعد عشرين عاما وعلى الرغم من الإصلاح الزراعى واسع النطاق وازدياد المناطق الزراعية الجديدة . تزايد عدد السكان بشكل أكبر بالنسبة لعدد الأفدنة ، وانخفض الرقم إلى ٤٣,٪ فدان للشخص الواحد ، وهذا العدد أقل بكثير مما هو مطبق فى اليابان ، هذه النسبة قد لا تكون من الأهمية بمكان فى مجتمع صناعى ، لكن فى بلد زراعى مثل مصر كانت تعنى الكثير ، وحتى الآن وبعد أن أضاف خزان ناصر حوالى مليون ونصف مليون فدان صالحة للزراعة واستقر الفلاحون بعائلاتهم فى الأرض الجديدة ، فمازالت الضغوط قاسية لأن تعداد السكان يتزايد بنسبة مليون فى كل عام .

وبالرغم من أن نزع الملكية لتغطية الديون وإرضاء المرابين اللعناء أصبحت من سمات الماضى ، ومع أن الكرباج العثمانى ونظام السخرة فى حفر القناة قد زال من الذاكرة ، فما زال لدى الفلاح الأمل لتحقيق مايرجو ، وحتى مع تقدم نظام الرى الحديث فإن ملاك أغنى الأراضى الزراعية فى العالم ما زالوا فى فقر مدقع ، إنها مواقف اعتادوا عليها منذ قرون طويلة ، ومعظم الفلاحين يكدون طوال اليوم دون مقابل يكفى لمعيشتهم ، وقلما يستطيعون توفير ما يزيد عن حاجتهم ؛ لأن حالتهم الاقتصادية ضيقة وشحيحة .

وفى هذه الظروف يستمر الفلاح فى العمل دون مراعاة لكل ما يحدث حوله ، وهو يعمل ويكد كما كان يفعل فى الماضى ، مستخدما معدات لم تتغير ، وطرقا أثبتت دائما أنها أكثر كفاءة وأنسب للريف من النظم العلمية التى أدخلت حديثا ، وعلى الأخص على الأراضى المستصلحة . فالحمار المتواضع يقوم بالعمل مع الفلاح منذ القدم ، ثم جاء الغزاة الهكسوس وملوك الرعاة بالحصان ، وقبيل مجيء السيد المسيح بوقت قصير عرف الجمل - وأعطى أرشميدس للفلاح الآلة الحلزونية التى أثارت حيرته . وهى تدار باليد فترفع مياه النيل ، تلك هى الساقية والشادوف أكثر ما يرفع الماء شيوعا وهى فرعونية الأصل . والساقية هى العجلة التى تئن وتنوء بحمل الماء ، والتى يديرها ثيران معصوبة العينين وقد أشرنا إليها سابقا ، ويتكون الشادوف من دلو من الجلد مربوط إلى قضيب خشبى طويل ، وعندما يدلى به فى الماء يرفع معه ماء النيل ، وتشغيل الشادوف - كما يقول الفلاح - عمل شاق ، فبينما هم يروون الأرض يشدون بأغنية رمزية عن العمل الشاق فيقولون :

هل أنت مصمم على أن تخنق أحدا منا ؟

أرخ الخية فليس لى أم تبكى على ولا عمة ولا أخت !

ومعظم المعدات التى يستخدمها الفلاح : محراثه الخشبى بأسنانه المدببة الحديدية ، ومعزقته التى يستعين بها بدلا من المجراف ، والمقطف المصنوع من الخيزران والذى يحمل فيه التربة - يرجع أصلها إلى الماضى البعيد - وفى العمليات المختلفة مثل درس الحبوب وفصل الحبوب عن القشر أى ذرى الحبوب تستطيع أن تتعقب نفس المثابرة ، وعندما يجمع قمحه مستخدما منجلا بسيطا فإنه ينجز فصل الحب عن القش عن طريق عربة غريبة من الخشب ، لها إسطوانات من الحديد المرصوص جنبا إلى جنب ، تدور فوق حزم القمح المتراصة ، وتقوم الإسطوانات الثقيلة بتقطيع القمح وفصل الحب عن القشر وسويقات النبات ، ويصبح الحب جاهزًا للذرى ، ويتم ذلك بالطريقة الأولية فيذرّى فى الهواء بمدراة خشبية هى صورة طبق الأصل من تلك التى كانت عند قدماء المصريين ، فيقع الحب على الأرض بينما يحمل الهواء الهشيم الخفيف الذى تحمله رياح الشمال التى تهب على الوادى يوما بعد يوم .

والفلاح المصرى محافظ على تقاليده بإصرار غريب ، ولكنه لم يصل إلى الطرق الحديثة إلا بعد فترة طويلة من التجربة والخطأ منذ الماضى البعيد .

ويبدو أن وسيلته التقليدية فى عمل الأشياء تكون هى الأفضل ، ومن أهم الدلالات على ذلك أنه يفضل المساكن المصنوعة من الطوب النيىء الرخيص – وهو على حق حينما يفضل هذه البيوت على البيوت المبنية من الخرسانة – فهو يعرف أن الطوب النيىء يجعل السكن دافئا شتاء ولطيفا فى الصيف ، فيفضلها على بديلتها التى تدل على التقدم .

ولكن التقدم غيّر من حياة الفلاح تغييرا عميقا (كبيرا) فقد أدت الطريقة إمداد الماء المتطورة فى الحصول على الماء إلى ثورة فى الزراعة ، فتاريخ مصر كان دائما مرتبطا بكمية الماء ، وفى جميع الأحوال فإن القنوات الجيدة وتوزيع المياه بطريقة عادلة كانت نتيجتها الرفاهية النسبية ، وعندما نقرأ عما كان يحدث فى الماضى من مجاعات وإملاق وسوء إدارة نجد أن الكاتب القديم يشكو من أن القنوات تمتلىء بالغرين وبالأعشاب الضارة، وأن المحاصيل تذبل من العطش ، ومن الصعب أن نتخيل أطنان المياه المطلوبة لرى المحاصيل تحت سماء مصر الحارقة ، إن مجموع كمية مياه الأمطار اللازمة للمحاصيل فى جو إنجلترا المعتدل (غير المتقلب) تكفى لرى حقل من القطن لحوالى ثلاثة أسابيع من جو مصر ، ففى الوقت الذى تشتد فيه حرارة الجو نجد أن محصول القطن يحتاج إلى ما يقرب من عشرين طنا من الماء لرى فدان واحد فى اليوم .

كان الفيضان يبدأ فى الظهور فى القاهرة فى أواخر شهر يونيو ، وكان وصول مياه الفيضان فى الماضى مناسبة يتم التضحية فيها بفتاة ، أما الآن فقد استبدلت الفتاة برمز غير آدمى ، ويظل النهر يرتفع بسرعة خلال الصيف ويصل إلى ذروته فى الخريف ، ويقل حجم الماء تدريجيا بدءا من أكتوبر حتى يصل فى الربيع إلى أدنى مستوى ، وقد زاد غرين الفيضان الغنى خلال قرن من الزمان بمقدار أربع بوصات من تربة الحبشة إلى وادى النيل ، ومن هنا جاءت خصوبته الضخمة .

وفى أواخر الصيف ، وأول الخريف نجد الفيضان الغنى يكفى أكثر من احتياجات البلاد ، كما أن كميات كبيرة من المياه غير المستخدمة تصب فى البحر وتضيع ، ومن قديم الزمان عرف الناس أن مشكلة الرى يمكن حلها على أوسع نطاق لو أمكن تخزين ذلك الكم الهائل من المياه الزائدة ، حتى يمكن استخدامها فى الربيع وبداية الصيف ، ولهذا الغرض كان الفراعنة على ما يبدو يستخدمون بحيرة قارون فى الفيوم بشىء من النجاح ، ولكن لم يمكن السيطرة على الفيضان تماما إلا بعد بناء الرئيس جمال عبد الناصر للسد العالى عام ١٩٦٨

وهذا السد الضخم الذى يعلو فوق وادى النيل بالقرب من نقطة رسوب النهر السريع إلى الشلال الأول يحفظ مياه الفيضان ، ويخلق خزانا ضخما طوله خمسمائة كيلو متر وعرضه عشرة كيلو مترات ، ويمتد إلى ما بعد حدود السودان ، وتنطلق المياه من خلال فتحات فى السد بشكل منتظم حسب الحاجة ، وتروى المحاصيل بالتساوى طول العام ، وبذلك فإن الأرض دائمة الاستخدام على مدى اثنى عشر شهرا فى العام، ويستطيع الفلاح أن يستخدم النذر اليسير من الماء ، وهذه الطريقة عكس رى الفيضان القديم وإن كان إنتاجه أقل إلا أنه صحى ومنظره جميل ، وكانت مناطق شاسعة تغمر بالماء أثناء الفيضان ، وكان الفلاح كالنبى نوح يقوم بغرس محاصيله كلما ظهرت الأرض من تحت المياه المنحسرة ، والآن يمكن الاستفادة من مياه الفيضان بشكل تام إلى جانب جريان ماء النيل ، حتى أنه فى بداية الصيف لا تتسرب المياه إلى البحر إلا المياه الميتة التى تنصرف من الأرض بعد الاستخدام ، وفى الواقع عرفوا منذ وقت طويل أنه من الضرورى بناء سدود مؤقتة فى رشيد ودمياط لمنع مياه البحر من الانسياب إلى مصب النيل الخالى ، والآثار الجانبية لخزان ناصر ليست إيجابية ، فمعظم الغرين يرسب الآن فى البحيرة العظمى فوق السد والرى الدائم فى وادى النيل رفع مستوى الماء الباطنى بشكل خطير ، وقد يكون هذا المشروع الطموح وبالا على البلاد مع مرور الوقت .

وفى الوقت نفسه فإن الفيضان المنظم يصل إلى المزروعات فى انسياب ، ومعنى هذا أن المياه لا ترتفع عموما إلى الحقول باستعمال التوربينات الكهربائية أو ما شابهها ، ولكن تعوقها (تعرقلها) سلسلة من القناطر ترتفع عادة مائة ميل فوق المناطق التى ستستخدم فيها ، وتنتقل من هذه القناطر عن طريق قنوات تسير فيها المياه على مهل وفى مستوى أعلى من النيل إلى أن تطلق فى النهاية لتنساب بسهولة فى المناطق التى يجب ريها .

والرى الدائم وكمية المياه الوفيرة التى توافرت ، يمكن أن تنتج محصولين أو ثلاثة فى العام ، من أهمها حقول القطن فى الدلتا ، وكان القطن كشجرة معروفا للفراعنة ولكن نبات القطن ذاته جاء إلى مصر فى عهد محمد على ، واليوم استطاعت أن تستنبط أجود أنواع القطن فى العالم ، وذلك بسبب جوها ورخص العمالة المطلوبة لعزق الحقول المستمر ، وتعتمد معظم ثروة مصر على القطن إذ بلغت فى السنوات الأخيرة أربعين مليون دولار سنويا .

ومع أن مصر كانت فى أحد البيانات شونة غلال بالنسبة للإمبراطورية الرومانية ، فإن قمحها ليس بنفس جودة القطن ، ولذلك فالفلاح يفضل أن يتغذى هو وعائلته على العدس والذرة التى سريعة النمو ، والتى قد أُدْخِلتْ للبلاد فى القرن الماضى ، والبرسيم وهو الشبندر المحلى فى مصر يفى بغرضين ، فهو علف ممتاز للدواب ، وفى الوقت نفسه سباخ لما له من خاصية تنتج النيتروجين ، ولأن الأرض غنية وأشعة الشمس مناسبة فإن فدان البرسيم يعطى ما بين خمسين وستين طنا خلال أشهر قليلة ، ومن أهم المحاصيل الأخرى للفلاح قصب السكر الذى يزرع فى الجنوب والأرز والبصل للتصدير والذى تنتشر رائحته عبر البلاد الأوروبية .

والحرف اليدوية للفلاح لم ينلها التغير مثلما نال الزراعة ، فالعالم حوله مهتم فقط بإدخال تعديلات على عاداته التى تؤدى إلى الكسب المادى ، ولهذا فإن الحرف المحلية مستمرة كما كانت دائما ، وهى اليوم التعبير الوحيد عن الذوق الجمالى فى مصر ، كما أنها حلقة اتصال أخرى بحضارة الفراعنة ، تلك الحضارة التى قدمت أعظم صناع الحرف ، وشعوروا أكبر بالحرف أكثر من كل الحضارات الأخرى ، ولا يصح أن نخلط بين حرف القرية هذه وبين أعمال النحاس والتطعيم بالصدف وغيرها من التحف الزهيدة التى تقدمها الأسواق (البزارات) للسياح ، إن إنتاج الفلاح يعتبر فى المقام الأول مصمم لأداء غرض معين (وظيفى) ، فالبلاط الذى يحرقه ليس لتزيين رف على المدفأة ، والسلال التى يصنعها لها أشكال وأنماط مزدانة بدقة لا حد لها للاستعمال فى القرية ، وكذلك يقوم النساجون بنسج الشيلان الجميلة وبطاطين من وبر الجمل والخرج المقلم بألوان زاهية ، وكلها للاستخدام فى القرية وليست لإثارة الاعجاب ، وهناك أيضا السجاد الصغير (الكليم) بالألوان : البنى والأصفر والأزرق التى تقوم النسوة بنسجها والتى تتسم بالبساطة التى هى جزء من جمالها .

ونفس الشيء بالنسبة لصناعة الخزف الذى يظل دائما أكثر ما ينتجه العمال المهرة جمالا ومهارة ، وتعد الأوانى الفخارية التى يشكلها العامل بيديه أو يستخدم العجلة الخاصة من أجمل ما يصنع فى مصر ، وكلها تحتفظ بأشكالها التقليدية وتزدان بالألوان (الأوكر) مثل السمراء أو الصفراء أو الحمراء دون طلاء لامع ، وتعد القلل الفخارية المصنوعة من الطمى والتى يبرد مسامها الماء وتوضع دائما على قاعدة النوافذ أو الأوانى الأكبر حجما (البلاص) التى تحملها النساء فوق رؤسهن من أكثر المظاهر رقة وجمالا . وتمر النساء بحملهن بشكل متكرر ،

ويمـرور الوقـت لا يلحظهن أحد . وكما كان يحدث فى أيام الفراعنة يلف حبـل حـول الأوانى الكبيرة للحـفاظ على أشـكالها أثناء عمـلية إحراقها تحت الشمس . وتنزع الحبال قبل إدخالها فى الفرن ، ومع أن صناعة الفخار قد استغنت عن الحبل منذ وقت طويل إلا أنه يستخدم لإضفاء شكل جمالى ، وبذلك فنحن ندين بالتقدير لهؤلاء الذين كانوا من أوائل من صنع الفخار والذين تظل حرفتهم باقية دون تغيير فى وادى النيل .

والفلاح عبد للأرض بحكم ما تمليه عليه زراعة المحاصيل ، وهؤلاء الذين يقومون بتخصيص نسبة ماء النيل ، ومع ذلك فهو لا يعمل طول الوقت ، فإن تحديد مساحة الأرض التى سيزرعها والزيادة الكبيرة فى عدد السكان والصناعات المحدودة تعنى بطالة جزئية ، فلا يستطيع الجميع أن يعملوا وفى الشرق حيث لا يثقل على الضمائر الطباع المتزمتة أو الرأسمالية ، فهذه البطالة لا تعد من الكوارث ، فالفراغ أحيانا ليس بالشىء المقيت لهؤلاء الفلاحين وهم لم يعانوا بعد أثقل أحمال الرجل الأبيض وهو لعنة الملل ، فدائما ما نرى الفلاحين يغطون فى النوم إلى جانب حشود الأطفال الذين يتجمعون حول أى غريب يجىء للقرية . إنهم هؤلاء العاطلون السعداء الذين يلعبون الورق بالساعات ويرسمون على الأرض خرائط لعبة الشطرنج ويجلسون فى ظل جدار يتـأملون قطع الشطرنج البـدائيـة ، ومع أن البطالسـة حـاولوا أن يجـعلوا الألعـاب الرياضيـة جزءا من حياة المصريين فإن أبناء البلد الحقيقيين يفضلون وقت الفراغ عندما لا يشغلهم شىء .

والفلاح - سواء كان يعمل أم يتكاسل بلا عمل - يتمتع بمرح لا حد له ومزاج للتسلية ، وهو يجدها فى كل ما حوله مما يجعل حياته محتملة ، فنراه يشرب القهوة ويدخن السـجائر ويعـاكس رفقاءه ويثير الضـحك ، أو نجده ينقـر على طبلتـه مع وقع أغنيه - وتعرف أن له عبقرية فائقة على المرح ، وعندما منع البعض تعاطى الحشيش عنه اكتشف هؤلاء العباقرة الآثار المشبعة التى يمكن أن يوفرها الشاى (يغلى كوبا من الشاى لمدة فينتج سائلا أسود اللون سميك له خواص المخدرات) ، وفى أسواق القرى الكبيرة عندما ينسى الفلاحـون عملهم تجدهـم منتشين وهم مـتشبثـون بأحد القصاصين المحترفين أو يشاهدون بسعادة ساحرا ماهرا أو يستمعون مرة أخرى إلى العراف الحكيم وهو يقرأ لهم الطالع . والحفلات هى أكثر ما يستمتع به الفلاح كعيد المولد النبوى أو شم النـسيم الذى يـعد من أكثر الأعياد جمـالا فى مصـر ، ففـى شـهر أبريل يتـوجـه شـعب بأكمله إلى الحـقول ليتناولوا طعـامـهم فى الهـواء الطلق ويسـتقبلون نسيم الربيع فى ترحاب ، وفى هذا الاحتـفال يجدلون سنابل القمح فى

شكل جميل (يسمونه عروس القمح) ويعلقونه فى كل بيت ليجلب لهم ولمحاصيلهم الحظ فى العام القادم .

وليست هناك مناسبة أجمل من المولد ، حيث يستمتع بها الفلاح هو وسكان المدن البسيطة ، ولعلك تتذوق الطعم الفنى لعادات أبناء البلد فى ليالى المدن الاقليمية ، فإنك تنساب مع تدفق الضحك والصياح وتدافع الناس ، وتجد نفسك محاطا بالقطن والحرير وتنساب الحشود فى تموج كالدوامة ، وعندما يقل الضغط تجد نفسك بين جموع محتشدة فى الميدان أمام الواجهة المضيئة لأحد المساجد ، وتجد الأضواء حولك فى كل مكان تسقط على مظلات المقاهى الملونة ومحال الحلوى ، وتسمعهم يهمهمون ويتحركون كما لو كانوا خلية من النحل ، وترى الأعمدة الطويلة تحمل الرايات تمتد فوق الجموع المحتشدة وترسل الأنوار فى سماء الليل ، وتسمع بائع العرقسوس بزيه المتميز بخطوطه الحمراء والبيضاء يحمل المشروب المثلج على كتفيه وهو يصلصل أكوابه المعدنية كما لو كانت ساجات ، وترى قطع البطيخ الحمراء تلمع ، بينما ترى الحلوى المكدسة فى الأكشاك كالبللور الملون إلى جانب الفواكه المسكرة وغير ذلك مما يشتهيه الأطفال من العرائس والأحصنة المصنوعة من الحلوى ، وكلها رموز لطقوس الخصوبة القديمة ، وترى أحد الأشراف – وربما كان من سلالة النبى عليه السلام – بعمامته الخضراء بينما يحمل بعض البدو ذوى البشرة السمراء وقسمات الوجه السامية الحادة سكاكين فى أحزمتهم الجلدية المزركشة بينما تغطى البطاطين أكتافهم ، أو ترى شخصا غائر العينين منطويا على نفسه وهو يلبس معطفا داكنا وتغطى رأسه عمامة بيضاء ناصعة وهو يتجول بمفرده وهو أحد التلاميذ المسلمين فى جامعة الأزهر ، وكذلك ترى مدافع أشخاص ذوى ملامح زنجية وعلى وجوههم علامات قبلية وهناك الشحاذ الضرير ، وتسمع ضجيجا ينبعث من بعض المومسات وهن يجلسن ساقا على ساق على عربة مارة يجرها حمار أبيض فاقع وغير عابىء بكل ما يجرى حوله من ضوضاء وإزعاج ، وبعد أن تمر العربة براكبيها ويخف الزحام تلاحظ جماعات العائلات الساكنة لا يتحركون حتى أنك لم تلاحظهم من قبل ويبدو عليهم كما لو كانوا قد ضربوا خيامهم منذ أيام .

وإذا ما انتقلت إلى الحوارى الجانبية الضيقة يبدأ الزحام من جديد وترى الصوت والحركة ممتزجين تماما ، ومع أن الظلام يشتد إلا أن الأكشاك تبعث هالة من النور ويشتد التزاحم خارج المقاهى وحول المقاعد بشكل تصعب معه الحركة ، وتسمع أحد رواد القصص وهو يشرح بوضوح تفاصيل أحدى القصص المألوفة بينما

فى مكان آخر يقدم أحد المغنين أغنيه غريبة مؤثرة هى الأغانى المصرية التى تعبر عن الشعور بالحنين وقد وضع كفه على خده ، وهذه الأغانى تبعث شعورا يفيض بالعاطفة ، وعلى دقات الطبول يقوم رجلان يحمل كل منهما عصا يتحاوران فى إيقاع منتظم فيتقدمان ثم يتراجعان فى مناورة لتحقيق نصر لا يتحقق أبدا، وتعد هذه الرقصة التى تقترب أكثر من النحت أو التمثال والتى إذا أجيد تقديمها تعد من أروع الأشياء فى مصر ، كما أن أوضاعها الانسابية تعبر فى حركة بطيئة عن جوهر عظمة الرجولة وتوازنها ، وتبدو العصى فى حركتها المتأنية التى تظهر برغم ذلك وكأنها تقترب من الذروة محدثة تأثيرا متراكما من التوتر مع دقات الطبول المنتظم التى لا مفر منها . كأنها معركة حياة أو موت .

وفى داخل أحد المقاهى المتحفظة قد نجد الرقص الشرقى الذى تؤديه من عصور قديمة « غازية » أو راقصة تنتمى إلى قبائل الغجر ، وهى قبائل تنتمى إلى عصور قديمة غير معروفة لها طابع خاص ، وهذا الرقص الشرقى المفترى عليه بخاصيته الفريدة المجردة يتفق مع مصر وأرضها ، وهو يؤدى فى أغلب الأحيان فى حركة ثقيلة ولكن ذلك يرجع إلى الراقصة وليس إلى نوع الرقص ، وقد تبدو الراقصة خليعة وهى فى نظر الأوروبين بدينة وغير جذابة ، وهذا الرقص على أحسن تقدير يحرك جوهر الإيقاع كما نراه فى حركات الثعابين أو ثعبان البحر ، وهو رقص مجرد وغير رومانسى ، والغازية القادرة تتحكم فى عضلاتها وتقتصر فى إيماءاتها وتشبه فى ذلك راقصة الباليه .

وفى جو من الدخان والأنوار ومرح المتفرجين الفاضح وكلها تطغى ، على صوت الموسيقى تظهر الراقصة ، وفى أغلب الأحيان تكون عارية حتى الوسط ، وتزدان بأشكال مختلفة من حلى وغوايش الغجر التى تؤكد شخشختها اللحن المصاحب للرقص ، وأحيانا تستعمل الراقصة الساجات ، والرقص فى حد ذاته هو تموجات وهزات إيقاعية متسقة تماما مع كل عضلة من جسم الراقصة ، وقد تدخل الراقصة تنويعات وتحسينات مختلفة ، وفى نفس الوقت وبسبب سيطرة الغازية الكاملة على عضلاتها وبسبب تدريبها المستمر فإنها تستطيع أن تنتقل من حركة إلى أخرى ثم إلى حركة ثالثة بينما تحافظ على مرونتها وتركيزها ، وهذا يذكرنا بشىء ينمو بعالم الطبيعة أكثر منه بعالم الإنسان ، وحين تنتهى الراقصة برعشة أخيرة قوية ويبدأ التصفيق فإننا نشعر وكأننا شاهدنا شيئا يشبه فى روعته تموجات البحر واندفاع فيضان النيل .

وهنا يكون الوقت قد تأخر ولكن الإنشاد الملح ينبعث من مكان ما يشدك وتتجه نحو حارة جانبية يقابلك منظر غريب ، فهناك رجل مسن يعزف على الفلوت بينما يقف أمامه صفان من الرجال نصف عرايا يترنحنون وينحون فى اتفاق تام يتغنون باسم الله « الله الله الله » ، وهذه التمتمة الخالية من المعنى أو اللون تنتزع من حناجر خشنة جافة بينما العرق يتدفق من وجوههم وعيونهم شاخصة جامدة دون أى تعبير ، هؤلاء هم الدراويش ، وتستمر هذه الطقوس دون انقطاع حتى يقع أحد الرجال وقد أنهكه التعب بينما يحل محله شخص آخر ، وكل هؤلاء الرجال مستغرقون كما لو أنهم قد خدروا وقد نسوا أنفسهم وكل ما يحيط بهم ، وينتابهم شعور بالرضا بأنهم قد نسوا الحقول وكل ما يعرفون ، هذا « الذكر » أو رقص الدراويش هو صميم المولد ، وهو النهاية المنطقية لمهرجان المرح الذى يعتبر مهرب الفلاح من الحياة ، فمحمد عليه الصلاة والسلام حرم الخمر، والقرن العشرون حرم الحشيش ولذلك تسلل البعض إلى هذا الركن المظلم والجلبة الصاخبة ليهتزوا ويترنحوا حتى النسيان ، ولا تتعثر التمتمة ، فالنيل قد أسكت والمحاصيل جمعت ومصر تنوى والفلاح حقق كل رغباته..

الفصل السادس

الأحياء والموتى

لا يشعر المرء بالفناء كما يشعر به فى مصر ؛ فبالرغم من أن الشمس ساطعة والنيل ساحر فإنك لا تستطيع أن تهرب من الإحساس بالموت ، وعلى الرغم من الوفرة فى كل شىء وتزاحم السكان الشديد فإن الموت يحيط بكل المشاهد ويسيطر على كل تحركات الأحياء ، فعلى مدى طول وادى النيل نجد المعبد الجنائزى والقبر المنحوت فى الصخر والهرم المطل عليها ، وكلها ترمز إلى الموت . فإذا ما رفعنا النظر من خضرة المزروعات إلى حافة الصحراء نراها تفرض نفسها فى حذر على عزلة المكان ، وتخفف من الحماس الكبير .

والمصرى كان دائمًا ومنذ القدم يدرك تمامًا طبيعة الحياة الزائلة ، فهو يحيا على التربة ، ومنها وإليها سوف يعود ، وهذه الحقائق حتمية ولا يمكن الهروب منها ، ومن هنا فإن المصرى القديم - ربما أكثر من أى شعب آخر - وجد من الضرورة أن يخفف من مرارة الواقع بأن يتجه بتعطش (نهم) شديد إلى احتمال البعث وفى إصرار مُلِحٍّ على الحياة بعد الموت الذى ينعكس بشكل غير مميز على الحياة التى عاشتها الجموع المجهولة التى قامت ببناء الأهرامات على الأرض .

وهكذا نشأت صناعة التحنيط وعقيدة البعث والفرار من طمى النيل اللين إلى الصحراء الجافة الحافظة ، واكتشفوا فى وقت مبكر احتمالات حفظ الجسد كما دلت المواد الحافظة التى وجدت فى قبور المغمورين من الناس منذ ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وبمرور الوقت راعى المجتمع كله - بداية من الفرعون حتى الرجل العادى - الاستعداد للخلود فى العالم الآخر ، وبالرغم من أن الفراعنة قد قاموا ببناء الأهرامات توكيداً لهذه العقيدة فقد لجأوا إلى التحنيط ، ووجدوا مكانًا على حافة الصحراء يتناسب مع حالة الفرد الاجتماعية وحتى واحة الخارجة التى تتوغل مائتى كيلو متر داخل صحراء ليبيا تحتوى على مقابر كثيرة .

وكان الموت والموتى دائمًا تتدخل فى كل شئون الأحياء ، حتى إن الموتى فى البر الغربى - الذى يقع على حافة الصحراء - وكان يطلق عليهم اسم الغربيين - فرضوا

أنفسهم على كل أمور الوادى . وكان الناس طيلة حياتهم يدبرون نفقات شراء مكان أمين يرتاحون فيه بعد الموت ، ويكدسون المراكب الصغيرة التى ستقربهم إلى شاطىء النيل الغربى حيث توجد - كما يعتقدون - الحياة الأخرى ، وحتى فى احتفالاتهم فلم يكونوا ليسمحوا لعالم المستقبل أن يغيب عن أذهانهم ، فكانوا يحملون فى تلك الاحتفالات نعشًا ليذكر الأحياء بالحياة الأخرى . وكان الموت يغزو حتى مقدسات الأعمال ، حتى أن المرء كان يرهن مومياء أبيه وهو فى حيرة من أمره .

وكانت القبور الكثيرة المنحوتة فى الصخر والأهرامات - وكل الحفائر التى يخرج منها الزائر وهو لا يكاد يرى فى ضوء الشمس - هى أكبر دليل (شاهد) على انشغال المصريين بالموت .

وتلك القبور التى تسكنها الخفافيش ولا تعبأ بالزمن ، والتى لا تشعر ببرد الشتاء ولا حرارة الصيف ، تؤكد تمامًا فكرة البعث الذى يؤمنون به وسيطرة القبر . ومما يثير الاهتمام أن هذا الكثير الذى عرف عن المصريين القدماء قد تم حفظه على أوراق البردى التى وجدت عن الموتى ومقابرهم ، فنرى على آلاف الجدران وصفاً عن الحضارة القديمة ورسومًا لم يقصد بها عيون الأحياء ، فتكشف التماثيل ورسوم الأشخاص فى هذه الشاعرية الأبدية عن كل ما يخفيه الزمن ، فنرى الزراعة والحصاد وفيضان النيل وجسوره وعمل الكاتب وصاحب الحرفة وصيد الأسود والأسماك . وهناك الميلاد والزواج والحرب والاحتفالات والموت - والعبد يزحف على الحجر بينما يقترب الفرعون متلصصاً والملكة فى زيها المميز تجلس لتتلقى الفاكهة وفروض الطاعة . كل هذا المجيء والمرواح وأبهة الحياة مع إشراف ونمو الحضارة واضمحلالها - تبدو كما لو كانت وجدت من أجل أمان وكرامة الموتى ومتعتهم .

وقبور الموتى المدفونين بحرص فى طيبة وأبيدوس وممفيس لا تعد ولا تحصى ، ومع أن الكثيرين من اللصوص وعلماء الآثار أقحموا أنفسهم فى مقابر الفراعنة ، فإن غالبية هؤلاء النائمين فى القبور مازال آمنًا تحت التراب ، فقد مات الكثيرون ودفنوا والوقت فى مصر يمتد إلى الماضى . ولعلنا نذكر مقولة السير توماس براون : «إن عدد الموتى يفوق بكثير أعداد من سيعيشون . وليل الليل يفوق بكثير النهار ، ومن يدرى متى يكون البعث ؟ هل كان حشد القدماء المصريين الهائل مدفونين ومحفوظين فى الرمال والصخور ؟ أم تحت أكوام الأحجار على حساب أملهم فى البعث» .

وإذا افترضنا أنه لم يبعث أحد من الأموات . فى هذه الحقيقة نجد ما يثير الرثاء فى وادى النيل وفيها نرى البشرية القبور والأهرامات التى تجبر الغريب على احترامها ، فهو يطأ برفق على أرض هذه الأماكن تواجهه أوهام كثيرة هى على النقيض أكثر تأثيراً وأكبر نبلاً من إنجازاتهم المتعددة . وفى ظل ضعفه وتعرضه للخطأ وميله إلى الأخطار التى لا يمكن لأى منطق أن يزيلها ، فإن الحدود الفسيولوجية الأساسية للعقل البشرى واضحة له تماماً فى هذه القبور ، وكل الثروة والجهود التى بذلت فى بناء هذه الأضرحة ضاعت كما تضيع حياتنا وأوقاتنا ، فالإنسانية لم تتغير خلال الحقبة القصيرة من تاريخ مصر . وإن كانت الأوهام قد تغيرت فإذا ما تذكر الغريب ذلك فإنه يسير فى خشوع خلال هذه الآثار العظيمة التى لا طائل منها .

والنظام الدينى للموتى والرعب من الفساد يوجد بشكل قوى فى وادى الملوك ، فكان كل فرعون من المملكة الجديدة عندما يرقد فى أبهة قصره وقد تم تحنيطه بالبلسم والسنا والمر كما جرت العادة ، نجد ممرات القبور المنحوتة من الصخر الأحمر المتين بعيداً عن صخب مدينة طيبة ذات البوابات المائة تمتد بلا نهاية فى ظلام الحجرات المؤدية إليها . وعلى الجدران نجد الأشكال الصامتة والرموز المبهمة تحكى قصة عقائدهم ، بينما تحرسها أبواب مسحورة ثقيلة من الحجر ، وفى تجويف موجود فى أبعد الحجرات نجد المومياء وقد ازدانت بسبائك عديدة من الذهب والأحجار الكريمة . وفى هذا الجو الخانق الجاف نجد صورة الملك على صندوق المومياء وحيداً يحملق فى السقف ، ينتظر دون جدوى إذن أوزوريس للخروج من هذا السجن المميت الخانق .

يا لها من ارستقراطية كان يمثلها هذا الوادى فى مجتمع له خصوصية قوية ! فالفراعنة كانوا فى نفس الوقت ملوكاً وآلهة ، يحتفظون بالمسافة حتى فى الموت . هنا لا يستطيع أى لورد أو شخص عادى أن يدخل عن طريق التملق ، كان أفراد العائلة الملكية لهم امتياز انتظار الاستدعاء الذى لم يأت مطلقاً . وحتى الزوجات لم يكن من حقهن الاضطجاع بجوار أزواجهن ، بل كن يبقين فى صالوناتهن الصخرية فى وادى الملكات المجاور . كن فى دثارهن المصنوع من الورق الذهبى وفى توابيتهن الطاهرة يمثلن جماعة من النساء الجميلات وفى رقة إمبراطورية ليس لها نظير فى أى بلاط ملكى فوق سطح الأرض . ولكن لم تكن هناك أية حركة أو صوت ، لم تسنح الفرصة لكى يبسطن فتنتهن المزدانة فى حضرة الآلهة والملوك الذين وعدن أنفسهن بلقائهم . لقد كان بعث الملوك والملكات يختلف تماماً ، فقد كان أكثر فجاعة وقسوة مما كنّ ينتظرن . وجاء اللصوص وفتحوا الأبواب عنوة وأرسلت الفوانيس ظلالاً طويلة وتجاوب

صدى الأقدام والانتهاك لحرمة المكان من جانب العامة فى جوانب الحجرات ، وارتجوا جميعًا بعنف من سكوتهم ، واختفى الذهب واختفت المجوهرات واختفت زهريات المرمر وخلعت الأغطية من حول أجساد الجميلات وكأنها قد خلعها المحبون ، وانتزعت أغطية المومیات عن الملوك مثل ما تنزع الضمادات عن الجروح وبيع فرعون ليصبح بلسمًا . وفى هذه الحفائر بعد قرون أخرى جاء محبو الاستطلاع - الرحالة الأول ثم علماء الآثار - جاءوا ليجمعوا الفضلات التى تركها اللصوص . وتعجب هؤلاء الذين ابتاعوا جزءًا من قدم أحد الفراعنة بعدة بنسات ، ولكن فاتتهم الحقيقة الساخرة ، إن هذه هى نهاية هؤلاء الأشخاص الذين اعتقدوا أن العالم الآخر حقيقى مثل هذا العالم ، والذين سعوا طويلاً وبثقة من أجل الدخول إلى هذا العالم بطريقة تليق بمكانتهم .

والعجيب أن من بين هؤلاء الذين انتظروا البعث ولكنهم وجدوا أيضًا اللصوص ، كانت عجول أبيس المقدسة . وتعد السيرابيوم فى سقارة - حيث ترقد هذه العجول مدفونة على عمق بعيد ، كل منها فى تابوته الجرانيتى - من الأماكن التى تستحق الزيارة ، إذ إنها من أكثر الأماكن المخيفة فى العالم . وكان كل عجل أثناء حياته يعد ممثلاً للآله ، وعند موته كان يدفن بتكاليف باهظة وبمجهود عظيم . وقد نما حول هذا التأليه عبادة قوية فى المملكة المتأخرة وقام الإسكندر الأكبر بنفسه بتقديم فروض الطاعة لهذا الإله الحيران . ومن الغريب حقًا أن هذه التوابيت الضخمة تم إدخالها فى مكانها ، وأن هذه المخلوقات الضخمة تم تحنيطها وتزينها وكأنها عرائس ، ولكن ليس بأقل غرابة منها ذلك التطبيق الخاطىء المخيف الذى تمثله هذه العبادة ، إن الإنسان يشعر بأن هناك قوة مخيفة متبلدة تتحرك ، إذ إن المقابر تعكس مدى الغباء المستوطن للإنسان . ونبدأ فى أن ندرك أن هذا الغباء واحد ، وأن عدواه تصيب القديس والفاسق ، وقد نجده ينعكس فيما يقوم به الإنسان بحسن نية . قد يكون هؤلاء أناس طيبون عبدوا العجل ولكنهم كانوا بلا شك حرفيين مهرة ومهندسين ممتازين ، ولكن هناك شيئًا غير جاد فى الطبيعة البشرية حولت طاقاتهم إلى جنون قامت بنحت معبد للحم البقر . وفى مقابر العجول نشعر بشذوذ دائم ومخيف فى تكوين الإنسان .

وقد يكون الاهتمام الذى انفرد به عجل أبيس شيئًا استثنائيًا ولكن كانت هناك عبادات أخرى انتشرت ، فى مصر فمن أم أربعة وأربعين إلى أبو منجل أخذت الحيوانات معانى رمزية ، وأصبح كل حقل أو مزرعة فى عقول الناس مقرًا لحيوانات آلهة . وكان اليونانيون يدعون أنه من السهل أن تجد إلهًا فى مصر على أن تجد إنسانًا ، وأكد جوفنال - وقد صدمه الواقع - أن مدنا عديدة تعبد الكلب ولكن لا تعبد ديانا .

وفى بوبسطة كانت عبادة القطط المقدسة مشهورة ، وكانت لاتوبوليس فى الصعيد قد اشتقت اسمها من لانوس - وهى سمكة نيلية كبيرة - كانت مومياواتها تباع إلى رحالة القرن التاسع عشر بأسعار رخيصة . ولعل عبادة الحيوانات قد وصلت إلى منتهاها فى مدينة التماسيح Crocodeiopolis فى الفيوم ، فهناك بجوار التيه المنتهى الذى يقول هيرودوت إنه أكثر تأثيراً من الأهرامات وأكبر من آثار اليونان ، كانت توجد التماسيح المقدسة . وكانت الزواحف ذات الأرجل المحلاة بالمجوهرات - وهى تعتبر التجسد الإلهى - يطعمها بالقوة المريدون كعكاً ومشروبات ممزوجة بالعسل . وحول هذه الحيوانات المخيفة نحتت مجموعة من الكهنة الأقوياء ولهم معابدهم وطقوسهم ، وقد استطاعت هذه الحيوانات البرمائية الدمثة أن تستولى على حياة حى غنى ومزدهر .

كانت توجد ولا تزال توجد فى مصر هوة واسعة بين هؤلاء الذين يخلقون الأفكار وهؤلاء الذين يستخدمون هذه الأفكار . إن الجوهر الأساسى للدين المصرى يختلف كثيراً عن الأشكال الشعبية حيث كانت التماسيح ذات أهمية عريضة فى الإيمان ولكن الفلاح كان يرى الآلهة فى حقوله . وكان المتعلمون منذ قديم الزمان يعتقدون فى وجود إله أعلى خلاق ، وكان الآلهة المتعددون يمثلون نواحى مختلفة لهذا الإله ، ومن ثم نجد أنهم فى شكل قليل يعكسون تعدد الآلهة . وكان من الطبيعى أنه فى جو مصر يظهر الإله الأعلى فى صورة الشمس الذى فى شكله استطاع (رع) أن يقتل كل يوم ثعبان الظلام وأبحر فى سفينة السماء . وفى هذا الإطار التوحيدى الأساسى لا نجد مجدولة ، ليس فقط دورات الآلهة القديمة والحديثة التى تبدو أنها تتصارع مع بعضها فى كل الأساطير البدائية ولكن أيضاً تطوير أسطورى جميل . ومن ثم نرى أن (سيا) إله الأرض (ونون) إله السماء من المفروض أن يتعانقا عند حلول الليل ولا ينفصلا إلا فى الصباح حين يوقظهما نور إله الضوء الذى يقوم كل يوم برفع (السموات) .

ولكن لكى نفهم مكانة البعث والدين فى العقل المصرى ، من الضرورى أن نمسك بالأسطورة المؤثرة والجميلة ، وهى من أهم مواصفات العقيدة المصرية . وعلى الرغم من أن حكاية إيزيس وأوزوريس قدمت بأشكال مختلفة فإن الخط الأساسى واحد . هناك أوزوريس ، رجل من أصل مقدس ، حكم مصر ، واستطاع بروحه الطيبة أن يأتى بالحضارة والسعادة للبلاد . وبعد اغتياله بيد ست وحصد روح الشر والدمار وتقطيع جسده ورمى القطع فى جميع أنحاء البلاد قامت إيزيس زوجته المحبة بجولتها الحزينة ، وبعد أن استطاعت أن تجمع أشلاءه فى (فيلة) استطاعت سيدة السحر كما كانت تسمى أن تعيد جسده إلى ما كان عليه عن طريق أشكال سحرية ، وجاءت له بابن .

وقد قام ذلك الابن حورس بهزيمة ست وتغلب الخير على الشر . وقد أصبحت إيزيس لأنها أم حورس . الأم المقدسة التى حبها المصريون والتى تشاهد فى تماثيل عديدة وهى ترضع ابنها . وأخيراً يعاد أوزيريس إلى الحياة والخلود بمساعدة نوت إله الحكمة ، وأخذ مكانه مع بقية الآلهة فى العالم الآخر .

ولا يمكن المبالغة فى أهمية هذه الأسطورة ، حيث إنها تحكى آراء المصريين فى البعث ، ولما كان أوزيريس قد تغلب على الموت فلماذا لا يقوم آخرون بذلك ؟ كان هناك أمل أمام كل إنسان بشرى . وتقول نصوص الأهرامات «وكذلك سيعيش هو لأن أوزيريس لم يمت ولذلك فلن يموت هو أيضاً» . وكما أن أوزوريس لم يفنَ فهو أيضاً لن يفنى . وتحول أوزوريس عن طريق امتداد فكرة من مجرد رجل منفرد أحيى إلى إله بل وسيلة لمعرفة أسباب ووسائل البعث . لقد كان نصيراً للإنسانية جمعاء أمام الآلهة ، وكان يشفع لهم متذكراً سقوطه شخصياً إلى الموت ، والعلاقة القريبة بين المسيحية وقصة أوزوريس واضحة للغاية . فالرجل الإله الذى يعانى ويموت ثم يصعد مرة أخرى قصة معروفة . وكما يعتقد المسيحيون فإنه ، مثل المسيح ، سيرحب به بين ذراعى الأب ، فإن المصرى كان يروى فى جاره الذى يخاف الله : «إن باب الجنة مفتوح لك ، ومزلاج الباب سيسحب من أجلك ، وستجد رع واقفاً هناك ، وسيأخذك من يدك ويقودك إلى المكان المقدس فى الجنة» . وإيزيس وحملها المقدس لحورس ينعكس فى قصة العذراء ، وأحياناً لا يمكن التفرقة بين تماثيل إيزيس الصغيرة وهى تحمل الطفل حورس من الصورة المصرية للعذراء وياسوع الطفل ، وليس بالمستغرب أنه حين وصلت المسيحية إلى مصر فإنها استقبلت بحماس من جموع الناس ، فقد وجد الناس فى الدين الجديد أحسن صفات القديم بالإضافة إلى العديد من المزايا .

وقد تمت حول أسطورة أوزوريس عبادة كبيرة أساسها البعث ومركزها فى أبيدوس ، حيث يقال إن رأسه استراحت . وقد بدأ المخلص فى التعدى على حقوق رع وتفوقت كهنوت أوزوريس على الإله الأكبر . ولما كان الجسد الكامل لأوزوريس قد حفظته إيزيس فإن الموتى من المصريين حنطوا لآلاف من السنين ضد بعثهم . ولما كان أوزوريس لم يكتسب خلوده إلا بعد أن تعرض لاختبارات الآلهة . فإن الإنسان الميت لا يدخل الجنة إلا بعد أن يمر عبر قاعة المحاكمة للخالدين ، حيث يتعلق مصيره فى الميزان . وكان مفهوم المحاكمة هذا هو ما يربط بين الأخلاق والدين فى مصر القديمة . ومن ثم فقد كان على غاية من الأهمية كتأثير حضارى . وكان التفكير هو أن أوزوريس يطلب من الأرواح التى جاءت للمحاكمة ، ليس فقط الإيمان وإنما أيضاً الأعمال الصالحة .

ولكن تلك الرحلة عبر المحكمة السماوية التى كان لكل مصرى يأمل فى المرور بها لم تكن مضمونة للخير والعدل ، فإن النجاح كان أيضاً يعتمد على الطقوس والتقاليد . وحين كانت المومياء تترك أخيراً لوحدة القبر . لم يكن يتصور أن الجسد الفانى بما حوله من أربطة سيقف مترنحاً على قدميه ويأكل الغذاء الموجود هناك ، وإنما كانت تلك المأكولات لروح الميت كامنة وطاقته الحيوية . إن الجسد البشرى لم ينهض ولم يقدم التحنيط أكثر من نقطة انطلاق ضرورية ، يستطيع منها الجسد الروحى الذى لا يفسد أن يبدأ رحلته إلى قاعة المحكمة للآلهة . وحين تصل روح الميت إلى المحكمة فإنها تصمم على النقاء ، وأمام منصة يجلس عليها أربعون من الآلهة يوزن قلبه بريشة الصدق والتقى ، ويقوم أنوبيس ذو رأس ابن آوى بتعزيز الميزان بينما يسجل توث نتيجة الاختبار على ورق البردى . وإذا ما تساوى القلب والريشة فى الميزان فإن الميت ينجو من الحيوان المفترس ويمر إلى قاعات العالم السفلى ، حيث تأخذ تعاويذ الكهنة والطلاسم السحرية المنحوتة على جدران قبره أهمية خاصة . وهنا يتعرض لأسئلة الخالدين التي سيساعده سحره على الإجابة الصحيحة عليها كما سبق أن قدم سحر توث أمان أوزوريس وبعد الانتهاء من العبور الخطر فإن توث ينتظر الميت مرة أخرى ليقدمه إلى أوزوريس . وفى هذه اللحظة تقوم النقوش التى تحمل أسماء الميت بمهمتها ، إذ إن الوصول إلى عتبة الإله بدون اسم هو الخطر النهائى فى معاناة ما بعد الموت .

وتنتهى مشاكل المصرى حين يقابله أوزوريس الذى مات وعاد للحياة أيضًا ، إذ يصبح خالداً ويدخل إلى جماعة الالهة «إنك ستتقدم إلى الجنة وستمر فوق السماء وستلتحق بالآلهة المتألقة» . تلك كانت رغبة أهل الأرض وتلك كانت آمالهم فى الجنة . هنا ينتهى طابور الفكر وحمية الرغبة التى نحتت المقابر ورفعت المعابد أسرة بعد أسرة ، والتى أعطت الحضارة الفرعونية صفتها الخاصة .

وقد استمر تطفل الموتى على الأحياء فى مصر الإسلامية ، ففى القاهرة عن كثب من ضوء الأسواق ودفئها ترقد مقابر الخلفاء ، وقد لا يوجد خليفة يرقد هناك (إذ إن أول دفن يرجع إلى العصر الفاطمى) ولكن مدينة الموتى بها الذكريات الشهيرة لمماليك القرن الخامس عشر ، وترتبط مقابرهم التي كانت فى يوم ما واقرة السخاء بالمدارس الساكنة ، والنافورات التى بدون ماء ، ومدارس القرآن التى أصبحت بدون تلاميذ ، والحجرات الفارغة التى كانت لاستقبال المعزين من أسر هؤلاء الذين بنوها . إن الكثير من هذه الأماكن الجنائزية ذات النقوش الجميلة ، مثل برقوق وبارزباى وقايتباى ، تمتاز بعظمة معمارية ولكنها فى تلك البيئة الملائمة تمثل آخر الأناقة التى تسبق الزوال إن هذه المقابر تمثل نهاية التقاليد العظيمة للعمارة الإسلامية .

وينتقل المرء فجأة من الشوارع التى تعج بالأحياء إلى الموتى المجاورين . إن الخطأ والصواب والكراهية والرغبة تواجهها فجأة سكون القبور المطبق ، ويسير المرء فى هذه المدينة التى تحمل العظام سواء تحت ضوء النجوم أو الضوء الدقيق للقمر ، ولا يوجد صوت إلا صدى وقع الأقدام ، ولا يرى العابر إلا الحارس الليلى ، وتحت أقبية رائعة يميزها خط أسود للسماء وقصور للموتى فى عظمتها يرقد حكام ماتوا من زمن بعيد ، بينما يرقد فى أضرحة أصغر بقايا باشوات القرن التاسع عشر والتى لا تزال تهم عملية تحلل أجسادهم ويثير القدم التراب ، ويسعى الفرد بصعوبة إلى أن يفرق بين نفسه وساكنى هذه المدينة . ولكن الشوارع الساكنة لا تقدم أى عزاء ، فالمقابر حقيقة ملموسة مثل الشوارع المضاءة ، وهذا الحشد النائم لا يقل حقيقة عن الجموع السائرة ، وكلما سار الفرد وجد القليل الذى يميز الحى من الميت ، فكلاهما جزء من عملية متكاملة لا يؤكد وحدتها وادى النيل . وهنا يصبح الفرد أقرب إلى عظام الموتى من رؤية عربات نقل الموتى ذات العجلات المطاطية والاحتفالات الجنائزية فى الغرب .

وحتى فى القرى الزراعية فإننا نجد أن المدافن تجاور مساكن الأحياء والمقابر تدس نفسها بعناد بين المنازل ، وأحيانًا ما تكون المدافن هى ميدان القرية ، ولكن فى معظم الأحيان ترقد مدافن المسلمين عند طرف الصحراء . وكما كان قدماء المصريين يزورون مقابر جدودهم فإن الفلاحين يقومون بما يسمونه (الطلعة الأسبوعية) . وإلى المقابر الصامتة المعرضة للريح والمتداعية المبنية من الطمى - والتى قد تكون ذات لون أبيض - تتوجه النساء من القرى وبعض الرجال فى اليوم الذى يعتقدون أن أرواح الموتى تعود لعدة ساعات لتسكن أضرحتهم . ويتكون الموكب الذى يسير تؤدا من القرية من واحد أو أكثر من الرجال الأتقياء وهم ينشدون آيات قرآنية ، إذ إن قراءة القرآن نافعة للموتى ، وأحيانًا توجد ندابات كما كان يحدث فى مصر القديمة . وتأخذ النساء معها بعض الخبز الدائرى (شريك) ويعطى كأجر لقارىء القرآن والندابات ، وتتكدس مجموعات من الأشخاص الملتحفين بالسواد بجوار المدافن فى الصحراء الصفراء الممتدة بلا نهاية . وتثير الرياح أقماحًا صغيرة من الرمال التى تنزلق تحت ضوء الشمس فوق الأرض . وتقول الزوجة فوق قبر زوجها فى صوت عادى «يوم جميل يا حسن ، كيف حالك» ، ومثل هذه التحية الاعتيادية وذلك الحوار من جانب واحد يقطع حبل الصمت على حافة الصحراء .

وعلى الرغم من أن الموتى الآن يتجهون نحو مكة وليس إلى غروب الشمس ، فإن نهاية الحياة الآن لا تقل طقوسها عن تلك التى كانت موجودة فى الماضى ، ولإطلاق

الروح من طمى الوادى والقرية فإن الفلاحين فى الصعيد كانوا حتى وقت قريب يضحون بكبش أو جدى ويرشون دمه على البقعة التى حدث فيها الموت . ولا يزال الميت يحمل فوق نعش ملفوف بقماش أخضر وهو اللون المقدس عند النبى ، ويدفن فى قبر فى من الصحراء كلما كان ذلك ممكناً . ويتبع ذلك الندابات تغطى رؤوسهن التراب وتتحرك أمن فلك النيل منسحبة هادفة بعيداً عن التربة والمياه والدورة الزراعية التى سيطرت عليها طوال حياتها .

والخلاصة هى أن هناك ما هو أكثر من المقابر الفرعونية والمدافن الإسلامية والذى يجعل الموت موجوداً فى الوادى . إنه المسافة التى تفصل الشخص الغريب عن جموع الفلاحين المجهولين . ولأنه لا يرتبط بالأشخاص ذوى العيون السوداء ، الحفاة بأرديتهم القطنية ، فإن الغريب لا يرى أفراداً أو شخصيات ، بل يرى وحدات : وحدات متعددة تعيش بطريقة معينة وقائمة فى أماكن متعددة على خط يمر بين الولادة والموت . إن الجمال والخلق والعلو الذى يميز الإنسان الآخر يعتم إلى حد ما المصير الذى يتشارك فيه مع الآخرين . إن الموت حقيقة مسلمة للعامة ولكن لا يوجد أبداً نفس اليقين المطلق أنه يطبق إلى فرد غير عادى ، لا يوجد نظير له يمكن أن نشير إليه .

ومن ثم فقد اعتقد الملوك أنهم خالدون . أما الشخص الغريب ، المعزول عن ساكنى النيل العاملين ، فلا يوجد أفراد ، ويبدو الموت فى كل وجه . وهناك قصة أن الإسكندر الأكبر سعياً وراء إثبات أصله السماوى زار مصدر الوحى فى جوبيتر / آمون فى واحة سيوة ، وهناك دخلت حصوة رمل فى عينه ، ورأى أحد كهنة المعبد أن يذكر الفاتح من هذا التراب صنع ملوك مقدونيا . ولم يكن الإسكندر فى حاجة إلى مثل هذه التذكرة ، لو كان قد أدرك طباع المصريين .

الفصل السابع

الأشياء التى تصنعها الأيدى

يتابع القبر الصخرى والهرم والمعبد فى أحضان الطبيعة المتشابهة دائمًا والتى تتغير بلا نهاية ، وبخلاف الأنقاض الكلاسيكية والقوطية فإن هذه الأبنية تبدو مهجورة . وليس ذلك فقط لأن الغرض منها قد انتهى قبل أن ينهب قبائل الهون روما ولكن لأنها أُزيحَتْ لقرون عديدة من حياة الناس وعواطفهم ، ولم يفهم أى من الأحياء مغزاها أو الحضارة التى بنتها . وإلى يومنا هذا رغم أنها تقاس وترمم وتزار إلا أنه من الصعب فهمها . كيف يستطيع القرن العشرون أن يعرف قلب سحتت الآلهة الأسد أو يخاف مثل هيرودوت من أن يكتب اسم أوزوريس . وبرغم أن الآلهة مرسومة فى أعداد لا حصر لها من الرسوم المنحوتة إلا أنها قد مضت بلا رجعة . وقد يشير الترجمان إلى الرموز المقدسة على الجدران ولكن لا يوجد الإله (رع) بأى شكل من الأشكال فى تصوره . لقد سرق الزمن حياة الأبنية . هنا حقًا نجد المكان القديم الذى هجره الإله ، فلا نجد مريدين فى حوش المعبد ، ولا طقوسًا ولا قسسًا فى المذبح ، بل لا نجد إلا الشعاع اليومى للشمس وهو يسقط بين الأعمدة ، يحرف الإله المشقق الساجد ، ولا يوجد إلا وصف ديل السائح أن أحفاد الفلاحين الذين عملوا لإقامة الأبنية (ثم يعيدوا بناءها أحيانًا تحت إشراف رؤساء أثريين) يجهلون تجوال إيزيس أو اسم ست . لقد ماتت الآلهة هنا من قبل أعمال الرجال .

إن خلفية الأنقاض التى لا تزال تسيطر على الوادى لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر - فمصر مصنوعة من الأنقاض - ففى هذا المناخ الجاف لا يوجد أى نبات شوكى يشوه الجدران المتداعية ، ولا توجد أمطار تشوه النحت فى الأحجار ، وقد تسقط الأعمدة والأفاريز ولكنها تبقى فى مكانها آمنة ، إلا إذا دفنت تحت موجة من الرمل الذى يحفظها . وتتمايل أشجار النخيل على طول جدران المعبد ، وتجلس آكلات النحل تتأرجح على أوراق الشجر ، وتحوم اليمامات فوق الأحواش الخالية ، ويلمع النهر فى الشمس وعليه القلاع البيضاء وصدى الأصوات . إن النهر تابع أساسى للمعابد ،

ولعله الوحيد الذى يفهمها . ومن أسوان جاء الجرانيت محمولاً على مياهه لبناء المسلات والتماثيل إلى ممفيس ، حيث كان أبو الهول الصغير أيام رى الحياض يبلل حوافره فى مياه الفيضان ، ومن ثم فإن النهر هو الذى كون تلك الخلفية العظيمة للماضى المصرى .

وإذا كانت هذه الخلفية غير عادية فكذلك الإحساس الطاغى بالزمن والتاريخ . إن المعابد والقصص المنحوتة على جدارها والأهرامات والأثاث الموجود فى المقابر ، لها من القصص ما تحكمها ، ومن المعلومات الفاتنة أكثر من آية آثار أخرى قديمة إنها تاريخ من الدرجة الأولى ، إنها سجل غريب ومذهل لأحداث وأفكار مفقودة . إن الغريب له ميزة النظر إلى مجتمع إنسانى وكأنه ينظر إليها بعينى أبى الهول ، إنه يتعقب تقدمها السريع ويراقب انهيارها البطىء . إن الفن المصرى يقدم أكثر من فن أى بلد آخر بيانًا بملخص النشاط البشرى لفترة طويلة وبعيدة . وهو يصور – بدون تحيز – حالة الآلهة والفراعنة أو تحركات أفراد مغمورين . وفى أمانة دقيقة تفصح تلك التماثيل الصغيرة المرسومة على الجدران عن أسرار أجيال متغيرة ، كاشفة بطريقة لا تعرف الرحمة أوهام وعادات وعقائد ثلاثين أسرة . لقد بنى خوفو قبره عند أقدام الهرم الأكبر معتقداً أن أوزوريس سيرفعه من الموتى ، وفى عهد جوستيان كان الناس يحنطون موتاهم فى فيلة بنفس العقيدة . وعند هرم سقارة يرتفع أول مبنى أثرى فى العالم ، وفى تل العمارنة لا تزال الحضارة التى خلفها إخناتون، أول موحد فى التاريخ ، باقية . وفى طيبة يمكن أن تفك رموز مآثر أقدم امبراطورية عسكرية فى العالم . وسواء فى إطار الزمن أو المكان فالخلفية واسعة جداً ، وحتى أوروبا نجدها مشاركة فى هذا الموكب النيلى ، وأشكال الفن الإغريقى نراها فى المقابر الصخرية فى بنى حسن . ويبدو أن البارثنيين يدين للكرنك بشىء ما ، وكان جوفيتال منفيًا فى أسوان ، وترك ١٢ امبراطوراً رومانيًا علاماتهم على جدران إسنا . وقد تم إنهاء قاعة دندرة بينما كان المسيح فى القدس ، واستضاف معبد الأقصر الكنيسة القبطية البيزنطية ، وقامت مجموعة من الرهبان المسيحيين بممارسة النسك فى موقع مدافن ممفيس . ومن مينا أول ملك فى الأسرة الأولى حتى السياح الإغريق اليونانيين الذين كتبوا أسماءهم على تمثالى ممنون يصطف التاريخ .

إن أهرامات الجيزة أصبحت ترمز لماضى مصر الطويل ولكن أول تأثير لهذه الجبال الصخرية يخيب الأمل ، فهى أقل تأثيراً عما كان منتظراً ، ولا يوجد أى شكل هندسى فى استطاعته أن يخفى الحجم مثل الأهرام ، ولا يوجد ما تقاس به إلا السماء

الزرقاء . وبرغم أن هرم خوفو الأكبر الذي شيد من أكثر من ٢ مليون كتلة من الصخور الجيرية وهو جبل ارتفاعه ٤٥٠ قدماً يغطى ١٣ فداناً ، إلا أن الإحصاءات لا تعنى كثيراً . ويمكن أن نتفق مع دكتور جولستون على أن الأهرامات أكثر الصناعات اليدوية ضخامة ، ولن تنال الأهرامات قدرها الحقيقى إلا إذا عاش الفرد معها وشعر بها . وقد ألقت ظلها على الوادى . وفي أثناء اليوم تراقب الأهرامات الأعمال المضحكة التى تقوم بها ، وفى الليل تحجب جدرانها الضخمة النجوم . وهناك فى داخل الصحراء تقف الأهرامات كلافتات ضخمة ، تشير إلى الطريق المؤدى إلى مصر . وحينئذ نشعر فعلاً بحجمها ومتانتها . إنها من خلق الإنسان التى لن تفنى ، وقد تبقى لتراه يزول من على سطح الأرض ، ولألفين من السنين أحاطت بتلك المقابر الميتة الشائعات والتخمينات ، وقد اعتقد أنها تحتوى على «أشباح البطالسة الفاسقين» أو حتى مخازن غلال سيدنا يوسف ، كما أن هيرودوت فى إحدى نزعاته النادرة كتب أن خوفو بنى الهرم الأكبر بمساعدة الثروة التى جمعتها ابنته الساقطة . وإذا نظرنا إلى حجم الأثر وتكاليفه فإن إنجازاتها لا تقل عجباً عن الأهرامات نفسها . ولا يزال الخيال يسعى خلفها ، إذ على الرغم من أننا نعرف وظيفتها العقيمة إلا أننا نختار أن نجد فيها علامات ورموزاً .

وتسلُّق هرم خفرع به شيء من الخطورة ، فهو أقل ارتفاعاً من الهرم الأكبر بثلاثة أقدام ، ولكن لأن قاعدته أقصر (٦٩٠ إلى ٧٥٥) فإن الزاوية تزيد على خمسين درجة ، كما أن قمته لا تزال تحتفظ بحوالى ١١٠ أقدام من الغلاف المصنوع من الحجر الأملس الذى كان يغطى كلاً الهرمين أصلاً ، فمن المؤكد أنهما كانتا أبيضين ولامعين . وأحسن وقت لتسلق الأهرامات هو الصباح المبكر ، حين تكون الشبورة لا تزال ثقيلة بحيث تخفى ضخامتها ، وحين تظهر الجمال فجأة على الطريق ويمر الفلاحون مثل الأشباح فى طريقهم إلى الحقول . وعند قاعدة هرم خفرع ينتظر الدليل البدوى والجو بارد وأنت تستعد لتسلق الهرم الذى لا يبدو منه إلا أجزاؤه السفلى ، وكتل الحجارة هشة وتحتاج إلى عيون يقظة ، ويحتاج تسلق كل منها إلى خطوة طويلة إلى أعلى . وقد أدخل الدليل طرف جلبابه حول وسطه وسبقتك «ساقاه» السمراوان وقدماه المقرحتان الجلديتان . وسواء إلى أسفل أو إلى أعلى فإن كل شيء غارق فى شبورة الصباح ، وتغرق الحواف المتداعية فى صوت عميق ، وفجأة تصل إلى منطقة مسكونة حيث تجد عظام فراخ وجلود فئران وبقايا بومة وريش صقور . ومن الواضح أن تلك الصخرة المهجورة كانت مجال احتفال حيوانى وتعاملات . إنها تتزاوج هنا ثم تطفو فى الشمس . ويختفى ابن آوى على طول إحدى الحوافى ، وينسحب الغراب فى الشبورة وينعق ثم يختفى تماماً .

ثم فجأة تشعر بضوء الشمس والسماء الزرقاء فوقك ، وتشاهد لمحة من القمة الوردية لهرم خفرع وقد بزغت من طوقها القطنى ، لقد وصلت إلى غلاف الصخور الجيرية ، وهنا تجد صخرة صغيرة بارزة وتبدأ الصعوبات . ويقرأ دليلك صلاة لله ، وحينئذ لا شك ستتذكر تحذير «الدليل الأزرق» للسياح الذى يقول إن تسلق هذا الهرم يحتاج إلى مجهود فائق . وتتولى الجماعة المسئولية وهى ثابتة ولا تعطى أية أهمية للتسلق . والواقع ومن حسن الحظ أن الغلاف قد تعرض للتآكل خلال أربعة آلاف وخمسمائة عام ، وتساعد الحزازات والشقوق على وجود ما تتعلق به الأيدى وتقف عليه الأقدام وتنسل إلى أعلى من الشبورة إلى الشمس التى تسقط أشعتها على ظهرك ، ويدو الغلاف أطول مما تخيلت وفجأة لا تجد أى شىء من أعلى وتجد نفسك واقفًا فوق مساحة بعض الأقدام المربعة على القمة المتهالكة ويجذب الدليل من أحد الشقوق صندوقًا من المعدن ويخرج منه كتابًا عليه إهداء (خاطىء) . إلى مارك توين أول أجنبى يتسلق الهرم الثانى وتوقع فى صفحات الكتاب وتشعر حينئذ بأنك حققت شيئًا . وحين ترقد فى الشمس وفى صمت الصباح الباكر فإنك تشعر بأنك معزول عن العالم التحتى وحينئذ سينتابك إحساس بالانتعاش بسبب التسلق حين تصل إلى المسارات الملساء للهرم ، وتجد أن لك حقًا على تاريخه .

وتقضى حرارة الشمس على الشبورة ، وينسحب الغلاف الحجرى ، وتعد مصر نفسها لعمل يوم آخر ، ويطفو صوت من الصحراء ومما بعدها من حقول خضراء حيث تراقب تحركات أقزام ، وتسرع السيارات على الطريق من القاهرة ، ويمتطى السياح جمالهم المتضجرة أمام فندق مينا هاوس . وفى الخلف تمتد الصحراء فى ثناياها وتموجاتها ، وإلى الأمام تقبع القاهرة بسكانها السبعة ملايين ، وإلى الشمال تمتد الدلتا ، وفى اتجاه الجنوب ترى النيل بلونه الأخضر الساطع بين التلال . وفى نظرة واحدة تغطى البلاد جميعها ومثل أى منظم للحفلات تقدم للخيال بتفصيلات الواحدة بعد الأخرى . وتشعر وأنت تجلس على عرش الماضى أنك تنظر إلى الحاضر باختيال ولمدة ساعة لا تنتمى إلى أى قرن . وحين تنزل بحرص فإنك ستشعر أنك تسقط إلى عالم غير مألوف ، وستحتاج إلى وقت لكى تعرف أنك تحيا ، ولك كيان حالى على الواقع وفى الحاضر .

وحينما يرقد الماضى السحيق والذى تمثله أحجار منحوتة وعذبة فى أنقاض جنوبى القاهرة فإن الماضى المصرى يلفت الأنظار ، ولكن هل هذه الأنقاض جميلة ؟ ما هى الصفات الأساسية التى تميز العمارة المصرية ؟ كيف تقارن المعابد بنظيراتها

فى اليونان أو الكنائس البيزنطية بفلات بلاديو ؟ كيف تبدو التماثيل إذا ما قورنت بقائد العجلة الحربية فى دلفى أو بقديسات تشارتر أو بأعمال برانكوزى ؟ ولماذا ما جردت هذه الآثار من اهتمامتها الرومانسية والتاريخية ما هى أهميتها الجمالية ؟

إن سمة المصرى القديم هى التى توحى بالإجابة . وهو كزوج وأب معروف بطيبته فإنه يعيش فى منزل حسن التخطيط ومعقول . ولأنه يشعر بسعادة متجددة دائمًا فى خلفية النيل فإنه حتى وإن كان من أهل المدينة ، يمتاز بقوة ملاحظة ساكن الريف وهو بشوش ومجد وفوق كل شىء عملى وهو يواصل علمه وطبه ودراسته لأسباب علمية . ويحكم أنه صاحب عقيدة فإن اهتمامه زائد بالطقوس أكثر من العقائد الدينية ، ولا يوجد شىء صورى فى رأيه حول العالم الآخر الذى يراه على أنه امتداد أكثر موافقة للحاضر . وكعضو فى مجتمع متوازن وواثق فإنه لا يتعرض لاضطرابات عصبية أو ضغوط خارجية . ومن ثم فإنه لا يجد سببًا يدعوه إلى التساؤل أو التغيير ، وكانت الوسائل والآراء القديمة تقوم بالمطلوب ، ولذلك فقد تعلق بها ويكفيه ما كان فى الماضى ، وحتى فى المملكة القديمة كان التعليم ينصب على المحاكاة وقد دامت الكتب الدراسية التى تبين أن كل جيل يعيد إنتاج المعرفة التى اكتسبها آباؤه بقناعة وبدقة . ولأنه لا تجتذبه التخمينات المجردة فإن المصرى لم يقيم الفكر من أجل الفكر ، فقد كان أقل الناس خيالاً .

ويأتى الكثير بعد ذلك من هذه الصفات . فقد وجد إحساس المصرى ليس فقط للطبيعة ، وإنما أيضًا للنشاطات البسيطة المرضية للحياة اليومية تعبيرًا قويًا فى فنه ، وهو لم يتوقف عن الشعور بالبهجة لكل ما رآه . وحتى حين أصبحت عقائده وأفكاره ثابتة لا تتغير فإن العين استمرت فى ملاحظاتها وهذا تسبب فى الكثير من جاذبية رسومه الجدرانية والرسوم المنحوتة . وقد حكى قصته بنجاح وطيد عن طريق استعمال اختراع بنيانى (لا يختلف كثيرًا عن رسامى القرن العشرين) وفى مقابر النبلاء حيث بقى الفن أكثر قربًا من الحياة عنه فى مقابر الملوك ومعابدهم ، نجد أن تمثيل الطيور والحيوانات وعملية الزراعة والعمل والمتعة يعكس حيوية بالغة ، إذ إن أساسها الانطباعات المنظورة (المرئية) وليس التخيلات .

وأيضًا نجد أن الناس العمليين ماهرون فى استعمال أيديهم وقد كان المصريون حرفيين مهرة ، ومن الحرف اشتق الإحساس بالمواد المستعملة . ويبدو أنهم عرفوا بالسليقة أحسن الوسائل — الحجارة الصلبة أو اللينة ، الديورايت أو المرمر أو الخشب

أو المعادن – لاستعمالها فيما يصنعونه . ومن الحرفة جاءت أيضًا الدقة والتفصيلات الدقيقة ورقة غير عادية للمس . هذه بعض الصفات التى تجعل مقبرة توت عنخ آمون وأثاثه جذابًا . وليس بالمستغرب أن هؤلاء الحرفيين أقوياء الملاحظة اخترعوا البورتريه ، وعلى الرغم من أن البورتريهات مصنوعة أساسًا لتحبس فى المقابر إلا أن التى وصلتنا منها – وخاصة للأشخاص العاديين مثل تمثال شيخ البلد – تعد تصويرًا صحيحًا ونفاذًا . ولم يتكرر مثل هذا إلا بعد أن طور الرومان بورتريه التمثال النصفى .

وهناك صفات أخرى فى السمات المصرية كان لها أثر غير حسن على الفن والعمارة . فقد أثبتت التقاليد والاهتمام بالرمز فى المدى الطويل أنها وخيمة العاقبة . فالفن فيما قبل الأسرات يبدأ بسلسلة من الأشياء الجميلة وبالمعدات المعدنية والبرطمانات الديورايت وغيرها . وفى سقارة فى الألفية الثالثة قبل الميلاد نجد أن هذا الشعور المرهف الجمالى الأصلى قد ضعف ، وسرعان ما تظهر نتائج غياب الآثارة الفكرية وحب الاستطلاع فنجد أن الأشكال تتكرر وتفقد حيويتها ولا يوجد إلا إحساس قليل للنمو أو الاكتشاف . ويتوقف الفن ، مثل التعليم والقانون والطب ، عن التطور . ولعدم شعورها بالتأثيرات الجديدة فإنها تركن إلى الحرف وتدرك حينئذ التعقيد التقنى المرتبط بالجمود الفكرى والعاطفى . لقد ملك المصرى اليد الحساسة والقدرة العلمية لإنتاج أى شىء ، ولكن أحيانًا لأجيال نجد أن الصورة الابتكارية لم تظهر . وقد قويت روح المحافظة لدرجة أنها وجدت نفسها فى إحساس الحنين إلى الماضى وقد عاد الفن إلى الوراء ببعض الخطوات التى اتخذها منذ أيام المملكة القديمة . ولا يستطيع إلا الأخصائى أن يفرق ما بين الكثير من أعمال الأسرة السادسة والعشرين من تلك التى صنعت قبلها بألفى عام . وقد لعب الارتباط غير الضرورى بالرمز والطقوس دورًا وخيم العاقبة . وفى غياب بعض الحوافز الخلاقة فإن الرمزية الحماسية لم تفتقد إلى ذلك الاختزال الخيالى الذى تنص الرموز إلى خلقه ، بل إلى اختناق وتعقيدات مجردة . وإذا ما توقف الفن عن الحركة فإن الأساليب المقرة للنحت والتصوير والعمارة تصبح مرتبطة بالمصالح الخاصة ، وأصبح من الصعب بل وخطرًا سياسيًا أن تغير الأسس المعروفة ، فقد قيد الضغط الملكي والكهنوتى فن النيل وصفوه بالطقوس ، حتى أنه لمدة طويلة توقف عن أن يكون شكلاً أساسيًا للتعبير .

وكان من الطبيعى أنه خلال فترة الغيبوبة الجمالية هذه أن يصبح الإحساس بالحرفة شيئًا جليل القيمة . وعلى الرغم من أن مصر لأجيال عديدة لم تنتج إلا القليل من الفن العظيم إلا أنها لم تنتج أى شىء سيئ .

والغريب أن هذه الأعمال المشهورة والطموحة ، معابد النظم الدينية والجنائزية التى تظهر بوضوح فى الجانب المعمارى ، هى الجانب الذى قد لا يرضينا فيه آثار مصر القديمة . إن شكل المعبد الذى ظهر فى الألفية الثانية قبل الميلاد – بما له من الإمكانيات الإمبراطورية التي لا تنتهى للملكة الحديثة– هو الذى استمر دون أى تغيير، حتى أغلقت المعابد فى القرن الرابع من جانب الإمبراطور بتوبوسيوس . وكانت تلك المعابد قد خططت بحيث يكون تأثيرها بسبب حجمها الكبير . إن استغلال الكتلة الضخمة قد يكون له بطبيعة الحال مغزى وتأثير ، وأمام الهرم الكبير فى الجيزة يمكن أن نتذكر القول المأثور لجودبه بريزيكا إن النحت هو الجبل ولكن معابد مصر العليا تكون أحياناً مملة . وحتى التخطيط المحورى والتعاقب على الأفنية الأمامية إلى الضريح الضيق فإنه مؤثر من جانب الطقوس أكثر منه من العمارة . إن الأبنية ذات الإلهام المعمارى مثل فناء أمينوفيس الثالث فى الأقصر والفناء الثانى فى مدينة هابو أو معبد حتشبسوت – تبرز كاستثناء – فالحساسية المعمارية التى تعبر عنها تعد غريبة على نهر النيل ، ونجد أن معابد مصر القديمة تفشل دائمًا فى تحقيق الهارمونى والتوازن الذى يعد أساس الأبنية العظيمة . إن الفشل أساسه غياب الحيوية الفكرية والقدرة على الجمع بين الأجزاء المتباينة إلى وحدة متكاملة متناسقة . ونجد فى رسوم الجدران فى المعابد العبقرية المحلية للخط والتفاصيل والتنفيذ . أما فى المعابد نفسها فإن الفرد يبحث دون جدوي عن العلاقات الأساسية والجهد الخلاق التي تنتج عن البحث المتعطش .

إن المعبد الإغريقى متناسق ، وكل جزء منه متوازن مع كل الأجزاء الأخرى ، والبناء نفسه يتناسب مع الجسم البشرى . فنجد أمن مقياس الشخص المختص به يرتبط بمقياس العمارة ، وهى لا تزحف ، كان كهنة آمون يزحفون مثل النمل حول قاعدة الأبنية الحجرية العالية . ومما لا دلالة أن المصريين لم يستثمروا أبداً إمكانات المساحات المغلقة . فإن أساليبهم تركزت دائمـاً على القاعات المزدحمة . ولا يوجد ما هو واضح عن عدم الإحساس بالشكل المعمارى عن معبد الكرنك المشهور . إن هذا المعبد يقال إنه من الضخامة بحيث يستوعب نو تردام ، ولكننا نجد هنا الوزن دون الضخامة والحجم دون الروعة . إن الأعمدة المتضخمة مترهلة وضعيفة ، واقترابها من بعضها يقضى على إحساس الارتفاع والمنظور ، ويبقى أثرًا لكل ما لا يستطيع العزم والعمل الشاق والقدرة الحرفية أن يحققه . إن آلهة الكرنك خدموا بحذلقة أكثر من خدمتهم فى المعبد الجنائزى لزوسر فى سقارة ١٥٠٠ عام ولكن أقل تناسباً .

إن آثار النيل فى وضعها الرائع وعظمتها وما لها من اهتمامات تاريخية تبدو دائمًا مهيبة ورائعة فى بادىء الأمر ، ولكن الشكوك حولها تبدأ بعد ذلك . هناك شىء ما ينقص هذه المعابد والمقابر الأثرية المتكررة . إنه شىء نجده فى البرطمانات المرمرية والديورايت البسيطة فى فترة ما قبل الأسرات ، نجده فى تحكمات أبنية أمنحوتب فى سقارة . وفى تماثيل الأسرة الثانية عشرة ، وفى جداريات مذبح سيتى الأول فى أبيدوس ، وفى مقابر راموس فى طيبة . وقد نجدها - فوق كل هذا - فى كل عمل من تل العمارنة حين نجد أن عبقرية إخناتون قد حطمت كل قيود التقاليد وأثارت وحفزت مواطنيه . إن هذا الشىء هو الإحساس بالشكل .

الفصل الثامن

مدينة الإسكندر

يروى هوميروس أن منيلوس عندما نشر قلاعه ونزل بأمان على جزيرة فاروس بالقرب من الموقع الذى ستقام عليه الإسكندرية إنما فعل ذلك بأن غلب إله البحر بروتيوس بالمكر والدهاء . وكان وجود هذه الجزيرة القريبة من الشاطىء بمرساها الآمن هو الذى حث الإسكندر الأكبر على أن ينشىء مدينته الجديدة عام ٣٣١ ق. م. على حافة مرتفعة من الحجر الجيرى . كانت تقع بين الجزيرة وبحيرة مريوط فى الداخل .

وعندما مات الإسكندر عام ٣٢٣ ق. م. استولى بطليموس سوتر القائد الأعلى لجيوشه وأكثر قواده كفاءة على مصر وأقام عاصمته فى الإسكندرية ، كما أخذ حيطته بأن استولى على جثة سيدة ودفنها هناك فى أبهة تليق بإمبراطور .

وقد دام حكم البطالسة قبل أن ينتهى بانتصار كليوباترا المضطرب ثلاثمائة سنة . وكان فى الأساس حكمًا إغريقيًا . وكانت كليوباترا آخر ملوك البطالسة هى الوحيدة التي اهتمت بتعلم اللغة المصرية . وكما يقول ا. ام فورستر «كان البطالسة يقومون بدور الفرعنة فبنوا معابد مهيبة ذات طراز قديم فى إدفو وكوم أمبو . أما فى الإسكندرية فقد كانوا يهتمون بالفنون الإغريقية لأنها كانت عاصمة البحر المتوسط وليست عاصمة مصر .

ولقد امتد حكم البطالسة الثلاث الأول سوتر وفيلادلفوس ولوجتيس إلى أكثر من قرن بشكل فعال ومؤثر ومبدع ، وجعلوا من الإسكندرية أعظم مدينة فى ذلك الوقت . وعليها تم بناء القلعة ومنارة فاروس الباسقة والتى تعد إحدى عجائب العالم القديم السبع . وقد بناها سوستراتوس الذى عاصر إقليدس وايراتوثنيس فى القرن الثالث ، وكان ارتفاعها يزيد على أربعمائة قدم ، وكانت مرآتها تبعث بشعاعها على بعد خمسة وثلاثين ميلاً . وفى نفس الوقت تم ربط الجزيرة بالأرض الأصلية بحاجز من الحجر (الهيناستاديون) وهو يعادل ثلاثة أرباع الميل وأمكن بذلك إنشاء ميناءين هما ميناء طريق العودة المأمون (Safe return) فى الغرب والميناء الملكى العظيم إلى

الشرق . ويتسع هذان الميناءان لحوالى ١٢٠٠ سفينة لم يستطع الطمى الذى جاء به التيار من نهر النيل المقدس فى الشرق أن يعوق حركة السفن . وكان الميناء مرتبطًا أيضاً بقناة تصله إلى بحيرة مريوط ، ومن ثم إلى نهر النيل نفسه .

وكانت التجارة عن طريق البحر تخرج من جزيرة فاروس حاملة المنتجات المصرية من زجاج وأوراق البردى والروائح العطرية (وكانت تحتكر هذه التجارة) ثم كميات هائلة من الحبوب ، بينما كانت المراكب تأتى من لبنان محملة بصبغة النيلة والأخشاب التى كانت قليلة جداً فى وادى النيل ، كما كانت تأتى من أماكن أخرى بعسل النحل وزيت الزيتون والرخام الذى كان يستخدم فى مبانى المدينة .

وكانت تلك الأبنية مشيدة فى تناسق على تصميم شبكى ، وكان كل (قسم) يشار إليه بأحد الحروف الأبجدية الإغريقية ، وكان الطريق المقدس الذى يبلغ عرضه مائة قدم وطوله ثلاثة أميال يجتازه من الغرب إلى الشرق . وبحلول العام الأول قبل الميلاد كان يوجد حوالى ٣٠٠,٠٠ مواطن إغريقى وربما نصف مليون من المواطنين فيهم جالية كبيرة من اليهود . وكان الحى الملكى يقع على الميناء العظيم . وهو مدينة فى حد ذاته . وإلى جنوب الميناء كانت تقع آل موسيون وهى الجامعة التى تعلم العلم فيها أجيال من العلماء الفاهمين ، حيث وجدوا فيها التعليم والمسكن المجانى ، وكان بها مكتبة فيها حوالى نصف مليون بردية ، وكان الحارس المسئول عنها فى وقت من الأوقات العالم كاليماكوس . وإلى الجنوب ارتفع السرابيوم – ذلك المعبد الشهير حيث كان يعبد سيرابيس الوصى الإلهى على المدينة (وهو من اختراع بطليموس سوتر الذكى ومستشاريه) ومعه رفيقته المصرية إيزيس – وهكذا كانت المدينة التي تقع على حافة المياه الزرقاء بجمالها الحقيقى ، حيث كان الكثير من مبانيها الحجرية مطليًا بالجبس الأبيض الناصع مما جعل الإسكندرية تتألق .

ولم تكن من الناحية الثقافية أقل تألقًا . فهنا قام كاليماكوس بكتابة قصيدته الشعرية التى تردد صداها الأجيال بعد موت صديقه هيراقليطس ، وهنا جاء ثيوكريتوس ليعيش وكتب قصيدته التى تصف رحلة أسيرة من الإسكندرية فى احتفالات أدونيس . ولكن مدينة بطليموس تألقت أكثر ما تألقت فى حقل الرياضيات والهندسة والتنجيم والطب والفقه . وكان إقليدس هو الذى طرح عناصر علم الهندسة كما قرر إيراستينوس عالم الرياضيات محيط الكرة الأرضية (وكان دقيقًا فى حدود خمسين ميلاً) ، وسبق هيروفيلدس هارفى فى اكتشاف الدورة الدموية كما افترض أحد العلماء أن الأرض تدور حول الشمس قبل اكتشاف كوبرنيكوس لذلك بسبعة عشر قرنًا .

وقام عالم آخر بابتكار يحدد بدقة التقويم ، واضعًا فى الحسبان السنوات الكبيسة . وكذلك أوجدت طرق موسيون العلمية لأول مرة نقد النصوص ، وقد أثار هذا المزيج من العلوم والبديهة وقوة التصور ورعاية الملوك التى تميزت بها المدينة فى القرن الثالث بشكل شديد الوضوح قصة شعر بيرينيسس عندما علقت زوجة بطليموس اريجتيس جدائل من شعرها فى معبد أفروديت فى كانوبوس قربانًا لعودة زوجها سالمًا من القتال ، ولكنها سرقت (فمجتمع بطليموس لم يكن معروفًا بالأمانة) ، ولكن عالم الفلك كونون اكتشف فى الوقت المناسب مجموعة جديدة من النجوم الثابتة ، وانتقلت جدائل الملكة إلى السماء لتلمع كمجموعة من النجوم عرفناها منذ ذلك الوقت باسم كومايرنيس وقام كاليماكوس بالاحتفال بهذا الحدث فى قصيدة من الشعر .

ولكن البطالسة العظماء ذهبوا وجاء بعدهم ملوك أقل عظمة . وناضلت الأسرة الحاكمة نضالاً ضعيفًا إلى أن تزوجت كليوباترا بالتتابع مع بطليموس الرابع عشر والخامس عشر ، وازدهرت فى عام ٣٠ ق. م. حتى وصلت إلى نهايتها المأساوية . وكانت روما التى وقعت عيناها الطامعة على الإسكندرية لفترة تزيد على القرن كانت هى المستفيدة . فقد حول أوكتافيوس بكفاءة واعية مصر إلى مخزن إمبراطورى للغلال ، وأمدت محاصيل النيل أهل روما بالخبز . وعلى الرغم من أن سكان الإسكندرية فى العصر البيزنطى كان عليهم أن يلعبوا دورًا حاسمًا فى نشر المسيحية فإن الأيام المثيرة كانت قد ولت .

وفى عام ٦٤٠ عندما وقعت الإسكندرية فى أيدى العرب استمر تدهور البلاد . فانهار نبراس الفاروس الذى أقيم مكانه تمثال بوسيدون حوالى عام ٧٠٠ وكان رمزًا لما حدث . فالحضارة العربية التى أدخلت على القاهرة البهاء والروعة كانت مهلكة للمدينة التى طالما استمدت وجهها وحيوتها من البحر المتوسط . فبينما كان المسيحيون يتناحرون فيما بينهم كان المسلمون يحكمون دون الاهتمام بالتجارة البحرية ، وتوقفت الإسكندرية عن الازدهار ، وكانت الأسوار التى أقامها العرب فى القرن التاسع تحيط ببقايا قليلة من مدينة البطالسة . وسدت الرواسب فرع نهر النيل المقدس فى القرن الثانى عشر ، وتراكم الطمى تجاه الميناء فيما كون برزخًا بين فاروس والمدينة . وعلق رجل إنجليزى فى القرن السابع عشر بأن جمال الإسكندرية قد هلك وتلاشى ولم يتبق فيها إلا الأنقاض ، بينما سجلت بعثة اللورد سندويتش فى عام ١٧٣٨ أن المدينة أصبحت خالية من السكان تقريبًا ، وعندما حول محمد على باشا – الذى جاء من

ألبانيا وكان يمثل الباب العالى فى مصر - اهتمامه الثاقب إلى الميناء المصرى عام ١٨١٥ ، كانت العاصمة قد تضاءلت إلى عدة آلاف واستطاع أن يجعل من الإسكندرية مرة أخرى مركزاً للتجارة وقام بربطها بنهر النيل بقناة جديدة وإدخال محصول القطن ، والأهم من ذلك أنه رحب بالإغريق وسكان بلاد شرق البحر المتوسط للإسكندرية ، فحولها بذلك إلى مركز كبير للتجارة .

وكانت الإسكندرية الجديدة غنية وذات دراية بشئون الحياة ، وأصبحت مدينة مناسبة وإن لم تحتفظ بهيبتها فى النصف الأول من القرن العشرين . فامتد كورنيش طوله ثلاثة عشر ميلاً على عدد من الشواطىء الجميلة . وكان الكورنيش ينتهى عند طرفيه بسراى ملكية فى المنتزه كانت تمتاز بشكلها السوقى ، ولسوء الحظ أصبحت المدينة أيضاً نموذجاً للتخطيط الشريطى ، فخلف الكورنيش امتد حزام من الأبنية تفصله عن الصحراء والمناطق الزراعية ، وهذا الشريط من المبانى كان يمثل تناقضاً غريباً . فمن ناحية وعلى بعد ميل أو أكثر كان يحتوى على فنادق وميادين للسباق وملعب للجولف ، ومن ناحية أخرى كانت الحقول على بعد بسيط من البحر . وكانت المساكن ذات الحجرة الواحدة ملفتة للنظر بجوار الفيلات الكبيرة ، كما كانت بيوت الاستحمام والمغاسل تحشر بين ملهى ليلى أو كازينو . فمكاسب القطن الكبيرة التى قامت ببناء المدينة لم تكن تعرف معنى التخطيط .

ولكن فى شهور الصيف - عندما كانت تهب نسمات باردة من البحر والشمس ساطعة - كان زائر المدينة مستعداً لأن ينسى هذا المزيج المتناقض والمعايير التي كانت ترمز لها . ففى هذا المجتمع الغنى من الإغريق وسكان شرق البحر المتوسط كانت المتعة متاحة كما فى أيام البطالسة . وكان هواء البحر يبعث على الحب والنميمة ، وكان الاستحمام فى البحر رائعاً ، وكان الطعام أجمل ما يكون فى مصر . وفى ذلك الفصل من السنة كانت المدينة تبدو فى احتفالات مستمرة . ومع ذلك فقد كان هناك إحساس بعدم واقعية هذه الاحتفالات ، فلم تكن لتستمر .

والآن اختفت هذه الإسكندرية الثانية كما اختفت بشكل قاطع مثل مدينة البطالسة . فقد هرب رجال المال وبارونات القطن إلى سويسرا ، وتفرق العلماء والشعراء ، كما رحلت حوريات الإسكندرية ونساء الدعارة مع من رحل من شخوص رباعيات الإسكندرية للورانس داريل ، وهجرت الڤيلات أو نزعت ملكيتها ، وامتلأت الحدائق بالمزروعات العشوائية ، وأصبحت المقاهى المريبة التى ألهمت أشعار كفافى فى حالة لا يمكن معها التعرف عليها . فلقد رحل الإغريق عن الإسكندرية مرة أخرى .

ولعلنا نفهم أسباب هذا التغيير . فحتى عام ١٩٦٠ لم تكن الإسكندرية مدينة مصرية ، واتجه نظرها نحو البحر ، وكانت نشطة ومجتهدة ، وتحتضن جميع الأديان . ولكن هذه المدينة التي تحمل أسماء شوارعها الأسماء والكتابة الرومانية وليست العربية لم يقبلها مواطنو مصر ، وكان لابد للإسكندرية أن تتغير ، وأصبح أمراً حتمياً أن تختفى المدينة العالمية ، بل أصبح أمراً له تبريره ، وإن كان ذلك يبعث على الحزن .

وأصبحت الإسكندرية الجديدة كالشبح ، فكان للإسكندر وكليوباترا وهادريان وصديقه انتينوس وجود فى الخيال أكثر من وجود الشعب فى الشوارع الحزينة . وهذا الإحساس بالماضى قوى لدرجة أنه فى صباح يوم صحو من أيام الصيف يبدو كما لو أن الواقع الحالى قد يختفى ، وأن المرء قد يصحو ليجد المغتربين يتدفقون من سراديبهم ، وأن النيل المقدس يفيض بغزارة بين تلك المعالم المتناثرة التي تحتفظ بذكراها فى تلك الخرائط . ونرى بطليموس فيلادلفوس هو وشعراؤه يقودون مرة ثانية الموكب الذى كان فيما مضى محط أنظار المدينة ، ثم نرى سيلينى مرتدياً عباءته القرمزية وعلى رأسه إكيليل من اللبلاب المطلى بالميناء الذهبية والخضراء وهو يحمل المظلات والمصابيح المزهية من شجر اللبلاب . ثم يتبعهم شبان على رؤوسهم تيجان مذهبة ونساء يحملن زهور الزئبق التى ينبعث عطرها فى كل مكان وأطباق القرفة المذهبة وغيرها من الروائح الذكية . ثم يظهر على طول الكورنيش أجمل الجميلات محمولات على محفات ذوات أرجل فضية تعلوها مظلات مزركشة (مطرزة) وقد لبسن أكاليل من زهر الخوخ وفروع النخل . ثم يأتى كهنة ديونيوس وهم يسكبون النبيذ إكراماً للآلهة ويعدهم الرياضيون يحملون حوامل ذات قوائم ثلاثية (Tripods) أمام الأشكال التى ترمز لليل والنهار وإلى الأرض والسماء . وأخيراً وراء الـ Oryxes والطيور الإثيوبية وراء الماشية البيضاء التى ليست لها قرون والأسود خلف عربة باخوس وعصارات النبيذ حيث يدوس ستون من الشياطين الماجنة على الكروم وهم يتغنون على أنغام الفلوت الفضى ، خلف كل هذا نرى مرة أخرى صورة الإسكندر وعلى رأسه تاج من ورق اللبلاب وهو قادم ليستولى على مدينته .

ولم يبق إلا القليل من هذه المدينة . فالطمى الذى كان يرسب فى مصب النيل انطفأ بريقه واختفت قنوات الفكر ، وأخذت الطوائف المختلفة تتناحر حيث كان العلماء يتجادلون ، وبقيت قطع قليلة من الجرانيت لتعيد للذاكرة أيام الفراعنة ، وذهب القصر الملكى والمكتبة دون أى أثر . وقام المسيحيون بإحراق المكتبة . ودفنت سيدات الأسرة

الخديوية فوق المكان الذى قيل إن الإسكندر دفن فيه . وأخذ العلماء يتجادلون فيما بينهم عن الموقع الحقيقى لـ canopus . منتجع البطالسة للمياه المعدنية ذى الطراز الحديث - أما المسلات التى كانت فى وقت ما تزين معابد أرتيميس وأرسينو فكانت قد شحنت منذ زمن بعيد إلى روما والقسطنطينية - وضاع كل الجمال والروعة والبهجة والتأملات التى أتى بها الإغريق إلى الدلتا . ولم يكن فى الإمكان الحفاظ على الأفكار والتحمس للحياة اللذين كانت الإسكندرية القديمة تموج بهما . وحاول بعض الرومان أن يحتفظوا بهذه التقاليد ولكنهم كانوا يفتقدون اللمسة المطلوبة ، ولم يتبق إلا ذاكرة إسكندرية البطالسة فقط ، وهى تاريخ مانيتو وسطور اقليدس العنكبوتية وحسابات اراسترثينس وشاعرية ثيوكريتس أو قطعة شعر لكاليماكوس وحكم وأفعال الإسكندرية الساخرة .

وحتى الآن فإن الإغريق لهم أسبابهم فى استرجاع الماضى ، فالبحر باقٍ والإسكندرية تعيش على شواطئها ، وأول شىء يجذب الانتباه إليها هو ارتباطها الوثيق بالماضى . فنرى على طول الكورنيش موجة تتراقص بحركة رشيقة نحو العديد من الخلجان التى تنيرها الشمس ، فتسقط وتجرى برشاقة نحو الرمل . وعلى البعد تقذف برشاشها الأبيض على الصخور ، ثم تسقط فى أمان فى حضن المياه الزرقاء الهادئة .

وعندما جاء الإغريق فى بادىء الأمر أحضروا معهم شيئًا من مياه بحر إيجة الصافية . هذا الشىء الذى هو مزيج من النور والماء يجعل الماء يوجه رأسه دائمًا نحو البحر فى الإسكندرية . وكما أن البحر به أسطول نلسون وكتل الحجر التى تكسوها الأعشاب والتى كانت فى يوم ما جزيرة فاروس فإن المرء ليتصور البحر يحمل كل ماضى المدينة ، ونراه بلونه الأزرق العميق فى الصيف الهادىء وهو يتلألأ ويصدر صوتًا كحفيف الشجر وهو يبدو وكأنه بالاد يستطيع أن يحمل اندفاعه التاريخى ، وفى مثل ذلك السكون نزل مينالوس وهو عائد من طروادة على جزيرة فاروس وقام بومباى العظيم وهو يجدف تجاه شاطىء البلوزياك وقد شعر بنهايته الخائنة وركز على قراءة محاورات أفلاطون . وعلى مثل ذلك البحر اللامع حيث تنساب مراكب الصيد إلى الميناء ، كانت سفينة كليوباترا تتقدم تحت ضربات المجاديف الفضية التى كانت تتحرك مع موسيقى الناى . ولا تزال مياه الإسكندرية التى كانت تقع تحت مقدم السفينة تحتفظ بذكرى مثل تلك المناسبات .

وهناك أيضًا فى المدينة مسرح وشارع هيللبتى اكتشفا أخيرًا وقد أصبحت أطلالها مكانًا مميزًا لطائر الهدهد . وعلى طول طريق الكانوبيك لا يزال الشارع الذى دفن لألف عام تقريبًا ، محتفظًا بحالته . ولا تزال باقية واجهات الحوانيت ومدخل الحمام ، وحتى تبليط الشارع . ولا شك أن كليوباترا قد مرت على هذا الطريق محمولة على محفتها ، بل قد يكون صندلها قد لمس بلاط الشارع . وبعد ذلك إذا أخذت طريقك فى وسط الأحياء المتربة فإنك ستجد نفسك مرة أخرى فى شبح ماضى المدينة وفى وسط كوم من الأنقاض غير الواضحة يرتفع عامود بومبى (السوارى الضخم) وقد امتد إلى السماء بطوله البالغ مائة قدم ، وقد نمت حول قاعدته بطريقة عشوائية أشجار خضراء غير نامية ، بينما تحوم أسراب الحمام حوله . وعلى الرغم من أن المساكن موجودة على مكان ليس بعيدًا عنه إلا أن المكان يغرق فى صمت عجيب . وتصل الأصوات وأصوات السيارات وكأنها تمر من خلال ستار من الزمن . إن هذا العامود وهو كل ما تبقى من مجتمع واسع وعظيم ، يبدو وكأن له حرمة غريبة ، ففى الشمال كان الموزيون أعظم مركز للعالم فى العالم القديم . وبجواره كان معبد سيرابيس المهيب . أما العامود نفسه الذى لم يقمه بومباى العظيم ، بل أقامه مواطن مجهول على شرف دايوقلبان ، فقد كان فى وسط رواق من أربعين عامودًا ، وقريبًا من ذلك وضع ٢٠٠ ألف جزء من الكتب التى استولى عليها أنطونى من البرجاموم وأهداها إلى كليوباترا والتى كانت (بلا) شك تحتوى على أشعار نيكاندر وموسايوس وتلك المخطوطات الهومورية التى صفقها حراتس من مالوس وكذلك تاريخ أبوللودوروس الأثينى . وقد أنهت تلك السرقة الكبيرة ذلك التنافس بين البرجاموم والإسكندرية ، وهو تنافس دعا البطالسة إلى منع تصدير البردى ، آملين فى أن عدم وجود المادة الخام قد يمنع إصدار مخطوطات برجامية . ومن السهل أن نتخيل الإثارة الكبيرة التى شعربها المفكرون والتلاميذ فى المدسيون حين وصلت هذه الحمولة الفريدة إلى المدينة . فتحت أصابعهم المتحرقة شوقًا وقعت نصف الحكمة التى استطاع التاريخ أن يحافظ عليها .

ولابد أن التماثيل الصغيرة المبهرة المعروضة فى المتحف الجريكوروماني ، ولعلها أهم الآثار الباقية من فن البطالسة فى الإسكندرية قد أعجبت فئة من الناس مختلفة تمامًا ، فالتماثيل والأوانى الفخارية الحمراء التى ترجع إلى عصر الإسكندر تعيد إلى الذاكرة المجموعة الشهيرة التى وجدت فى طناجرا ، غير أن جو مصر كان أرفق بها من جو اليونان فاحتفظت بألوانها الرقيقة . ونرى فى هذه التماثيل الصغيرة نفس الحشود التى كانت تتجمع فى الشوارع لتشاهد موكب فيلادلفيوس . وهنا تستطيع أن

نترك الخيال على شاطىء البحر ، لأننا هنا نرى تماثيل لأشباح أناس عاديين ، يتلاحقها الخيال عبر المبانى والشوارع المرصوفة بالأسفلت . ومن داخل صناديق العرض تطل علينا المدينة البطلسية العابثة السريعة المرحة . ولكننا لا نرى هنا علماء الموزنيون ، بل نرى الزوجات العابثات لأغنياء البلاط والمحظيات والداعرات والرجال الذين يفرطون فى أشكال ملابسهم والشعراء وسماسرة السوق البحرية الأقوياء . وهذه التماثيل لها أناقة خالدة دائمًا ، فشعر السيدات مصفوف على أعلى طراز ، والرجال تبدو عليهم آثارالمعرفة فنرى مهرجًا يضحك على مكانه وبجواره سيدة تبتسم وهى ترفع جونلتها عن ساق جميلة ، وكلهم وكأنهم يتزحلقون على جليد هش ، وكان فن المثال قد استطاع أن يحجبها ، وتلك التماثيل – مثل الحضارة التى يمثلونها – جميلة وذكية ، بسيطة ومركبة ، هل كان هؤلاء الناس فى يوم ما عابثين أم جادين ؟ هل كانوا واقعيين . وتعدت زهورهم من الزنبق والأماركوس ؟ هل سكبوا النبيذ على هذه الملابس الجميلة أو صحوا يومًا على يوم عبوس ؟ إن المرء ليشعر وهو واقف أمام هذه الفترينات الزجاجية بأن مثل هذا المجتمع كان ثمينًا بدرجة لم يستطع معها البقاء – طريقا روحانيًا ليستطيع الاستمرار فى رتابة الزمن المستمرة . إن جاذبية هذا المجتمع وانحلاله سارًا معًا فى انسجام – وكيف أمكن هؤلاء الناس – المهرجون منهم والمثقفون – أن يتعاملوا مع هذا التجاوز فى الحد ؟ هل هو طمى النيل أم قوة الإسلام ؟ أم المطالب المفرطة للمسيح ؟ لقد كانوا أكثر مهارة من أن يفتشوا القرون الوسطى ، ولكن لم يكن هذا المجتمع اليونانى الكلاسيكى ليقتل الوقت بجاذبيته وذكائه سريع التقلب . فإلى غرب الإسكندرية تمتد على بعد خمسين ميلاً بحيرة مريوط العذبة التى كان يغذيها النيل ويفصلها عن البحر برزخ عرضه ميلان أو ثلاثة أميال .

وكانت هذه المساحة من المياه هى مركز اهتمام عدد من الجاليات نصف اليونانية التي كانت تعيش حياة زراعية بسيطة . ولابد أن الحياة على شواطىء هذا البحر البعيد عن الساحل كانت أقرب إلى الشاعرية . وأضافت مجريات الأحداث الرزينة تباينًا مطمئنًا عن تألق العاصمة وسير الأمور فيها ، فقد تم – كما تقول الأسطورة – صنع النبيذ من الكروم لأول مرة فى مدينة بلنتين على الساحل الشمالى ، وامتدت رعاية مزارع الكروم فى عصر البطالسة حتى حافة المياه . وكانت السفن تجيء وتروح إلى بحيرة مريوط حاملة البضائع من زيتون وكروم الخريف فى جو خال من العواصف التى تعكر صفو سطحها الهادى برغم قربه من البحر . ولقد قامت مدن صغيرة على شواطئها وقهرت الأرصفة من حدة الماء وامتلأت الموانى بالسفن الساكنة . وكان الجو

رائعًا يلطف من حرارة الصيف ، وكان نسيم الشمال يهب فيملأ القلاع . وازدهرت حياة الناس فى مريوط لا تزعجهم العقائد المجنونة ولا يستبد بهم العمل الشاق . فقاموا برعاية الكروم والإبحار فى البحيرة ، واستمتعوا أثناء حياتهم بالهدوء والسعادة .

ولكن هذه الحياة كانت أجمل من أن تستمر ، وانتهى العصر الجريكورومانى ، وسكتت الإله الرومانية ، وأخفقت المنظمة التى كانت تسير بغاية الانتظام ، واقتحم البرابرة الليبيون المكان من الغرب فجعلت غاراتهم من الحياة جحيماً واندثرت حضارة البحيرة . فجاء فى النهاية خريف لم تحصد فيه الكروم بعد أن رحل جميع المزارعين ، وأخيراً توقف تدفق مياه النيل واختفت البحيرة نفسها .

واليوم فإن الحافة المرتفعة التى كانت تطل على الماء أصبحت مكانًا يقيم فيه البدو خيامهم . وفى مكان حدائق الكروم أخذوا يرعون ماعزهم ويزرعون أثناء الفصول الملائمة محاصيلهم المتناثرة من الشعير . وفى غير الفصول يتجولون على أرض الميناء القديمة ويحمون أنفسهم من حرارة الشمس بجانب أنقاض الجدران والأرصفة . وهم لا يرون شيئًا من الماضى الذى كان يجعل من مريوط واحدة من أكثر الأماكن التى تؤثر فى الزوار . ومن العجيب أن الزراع المتواضعين البسطاء المهذبين قد تركوا بصمات حيوية كما فعل الفراعنة الأقوياء فى وادى النيل .

وبقايا البحيرة الآن مالحة ، وأصبحت أهم مشاكل البدو هى المياه العذبة ولكن خصوبة الأرض لا تقف عند حد ، وعندما يأتى الشتاء ببعض ساعات من الأمطار فإن تلال الربيع تكسوها الزهور البرية ويحذاء الجدار الذى كان من قبل يسود البحيرة فإننا نسير خلال الأزهار الكثيرة المختلفة ، منها زهرة الصخر والسوسن والزنبق والخشخاش ونبات رعى الحمام العطرى وزهرة المتيولا والمارجولد وغيرها . وهذه الحديقة التى لا يرعاها أحد مترامية الأطراف يملؤها عبير الزهور ، وتبعث ألوانها الزاهية على العجب ، وبين هذه الزهور التى ترتفع حتى الركبتين يقيم البدو خيامهم . وإلى الجنوب حيث لا يرسل نسيم البحر أية رطوبة وحيث لا تسقط الأمطار إلا نادراً تنضب غزارة الزرع ، وأخيراً تصل إلى الصحراء الصفراء العارية .

وإذا ما اتجهنا نحو حوض البحيرة العتيقة ، يمر المرء حيث كانت السفن تمس سطح البحيرة بسرعة أو تسير عكس اتجاه الريح الشمالية بميناء طابوزيرس ماجنا ، وهو من أهم مدن مريوط ، وعلى الرغم من أن مد الربيع فى الميناء ليس سوى زهور فإن المكان الميت حى بشكل يسترعى الانتباه ومهجور ولكنه مأهول بالناس ، وعلى

حوض البحيرة لا يتحرك أحد ومع ذلك نسمع طرطشة المجاديف وضوضاء المرفأ ، والمكان ساكن إلا من طنين النحل ومع ذلك فصدى الأصوات يسمع فوق الماء ويسير المرء بحذائه الجاف بين سلاسل مرساة السفينة أسفل قاعدة السفينة ، وينظر مراراً خلفه وهو بين أطلال المدينة ويشعر بأنه يتعدى على هؤلاء الناس الطيبين .

وعلى قمة المنحدر الذى يفصل المدينة والبحيرة عن البحر نجد معبد أوزيرس المهدم حيث كان يتعبد هؤلاء الناس ، وبالقرب منه نجد برج الإشارة المكسور ، وهو صورة طبق الأصل من منارة فاروس العظيمة ، وإن كان فى عشر حجمه ، وقد ذوى إلى أصفر باهت ، ولم يعد شعاعه يصل إلى البحيرة أثناء الليل ، ويخيم الظلال على طابوزيرس ، ولكن إذا ما نظرنا أسفل التل المغطى بالزهور - حيث كانت الحركة دائبة فى يوم من الأيام - فإننا لا نجد المنظر والحوض الذى خلا من الماء موحشاً تماماً ، فإن حضارة تجارة الخمور قد تركت شيئاً من إيقاعها المتناسق ، والمزارعون مازالوا يبعثون الحياة فى المنظر الطبيعى ، فالحياة فى مريوط - على الرغم من أن هؤلاء اليونانيين لم يشهدوا أعياد فيلادلفوس أو يسمعوا نكات نساء المتحف المصنوع من الفخار الأحمر - لم تكن العطية الوحيدة التى أعطاها البطالسة لمصر .

الفصل التاسع

القاهرة أرض العصور الوسطى العظيمة

إن الانطباع الأول هو تأثير القرن العشرين السيئ . ففى جيل واحد ارتفع عدد سكان القاهرة إلى ثلاثة أضعاف . واختفت الحدائق الخضراء الواسعة والفيلات تماماً . وامتلأت شوارع القاهرة الرثة بأصوات وضجيج أبواق السيارات والعمارات الكبيرة المبنية من الأسمنت والتى ترتفع فى تخطيط فوضوى تحجب المبانى الأخرى .. ولكن الزائر إذا نظر من الدور العاشر للفندق يستطيع أن يلمح عن شمال المدينة الحديثة غابة مذهلة من المآذن وفى الشوارع يرى الجمال المحملة تنتظر فى شموخ وغطرسة لتغيير أنوار المرور . والفلايك تنسل فى هدوء مع مجرى النهر ، بينما العربات واللوريات تعبر فى صخب كبارى النيل ، وعلى الرصيف على حافة النهر وأمام العمارات العالية نرى الرجال منبطحين على الأرض فى اتجاه مكة . حيث يتجه المحمل الذى كان يتجه إليها كل عام ، وإن لم تكن القافلة التى تحمله فى نفس العظمة التى كانت عليها القافلة منذ سبعة قرون لأنها تحمل على الطائرة . فيكشف هذا التناقض عن وجود مدنية أخرى من بين الحاضر الذى أدخلت إليه النظم الغربية وهى عاصمة الإسلام التاريخية .

والقاهرة مازالت أولى مدن القرون الوسطى ، وظلت لقرون عديدة على درجة هائلة من الثراء ، ولم تتعرض للغزو المغولى الذى دمر عظمة منافستها بغداد . ومازالت القاهرة منافساً مهدداً وبقاؤها معجزة خارقة ، فهى مزيج من البهاء والبؤس (القذارة) ، والفرق بين روائها وفقرها كثير .

ورغم طول الفترة التى عاشتها مصر فهى جديدة نسبيًا ، والحقبة التى دامت ألفى عام مسجلة فى آثارها . ولا تستطيع كل من روما واسطنبول أن تقدم ثراء معمارياً مستمداً من العصور الوسطى مقارنة بما فى مصر ، ولعل أحياء القاهرة القديمة لم تتغير كثيراً عن أى عاصمة كبيرة .

ويبدأ التاريخ والآثار المسيحية والقلعة الرومانية . وقد لعبت مصر دوراً حاسماً في باكورة تطور المسيحية . فإن العقيدة الدينية للبعث – والتي ترتبط بإيزيس وأوزيريس والأم المقدسة وابنها الإلهي حورس – كانت ترتبط بسهولة بالعقيدة الجديدة ، خاصة في بلد معروف عنه تعدد عقائده المحيرة . لم يكن الرومان في بادئ الأمر معنيين بالانتشار السريع بدين جديد ، وعندما وضعت سياسة للقمع في نهاية القرن الثالث كان الوقت قد تأخر كثيراً . وتقول التقاليد إن ١٤٤,٠٠٠ شخص ماتوا في فترة اضطهاد ديسيوس ديوكليشن ، ومع ذلك فقد ظلت الكنيسة في مصر صامدة . وبعد مرور مائة عام أصبحت المسيحية هي الدين الأساسي في البلاد ، واستمرت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان . وأغلقت المعابد بالقوة بعد عام ٣٧٩ بمرسوم ثيودوسيوس إمبراطور بيزنطة وحولت معظمها إلى كنائس ، وعلى جدران معبد فيلة وراء سد أسوان – وهو آخر معقل لرجال كهنوت – كتبت العبارة التالية : «لقد تغلب الصليب وسيظل دائماً متغلباً» .

ولكن لفزع واشمئزاز بيزنطة بدأ شعب مصر – بما عهد فيهم من صفات مميزة – يصرون على ترجمتهم لنص الدين الإمبراطوري . وكانوا يفضلون أن يروا في المسيح كياناً واحداً يستوعب فيه المذهب الإلهي المقدس ، والمذهب الدنيوي ، وبدلاً من أن ينفصل الاثنان يبقيان متوحدين كما يقتضي المذهب الأرثوذكسي .

وفي مجلس شاليدون عام ٤٥١ أدين مذهبهم الـ monophysite الذي يقول : إن السيد المسيح وحدة واحدة مكونة من جسد وروح . وأصبح معظم المصريين فيما بعد في شقاق . وهذا الانقسام – الذي نتج عن الشعور الوطني بقدر ما كان ناتجاً عن الشعور الديني – كان يعكس ما يكمن بداخلهم من اعتراض لكل ما انبثق عن الإغريق منذ عهد البطالسة .

ولمدة ٢٠٠ عام تقريباً من عهد شالسدون إلى الغزو العربي عام ٦٤١ كانت هناك كنيستان تتعارضان بشدة : الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية والكنيسة القبطية التي كانت تتمتع بالتأييد الكامل من معظم فئات الشعب .

وكانت قلعة بابليون الرومانية الاستراتيجية التي تقع جنوب المنطقة التي بنيت عليها القاهرة ، مركزاً لمدينة وميناء صغيرين . وكانت من الأهمية بمكان للمسيحيين المصريين ، لأنه بالقرب منها – كما يقال – استقرت العائلة المقدسة بعد هروبها من فلسطين . واليوم ما زالت ست كنائس قبطية موجودة داخل الاستحكامات المتهدمة التي كان البيزنطيون يزودونها بحاميتهم . وهذا الحي فقير ، تتعرج فيه الأزقة ، وربما يسكنه المسيحيون منذ أن نشر القديس مارك الإنجيل في القرن الأول . ولعل

اثاناسيون والقساوسة الأوائل كانوا يصلون هناك ، وهنا كان يقام القداس لعدة قرون قبل مجيء المسلمين ، وهذه الاستمرارية تثير العواطف . ورغم أن الكنائس أعيد بناؤها وترميمها ، فإن الطقوس القبطية التى تمارس اتخذت شكلها الحالى فى القرن الخامس ، ولم تتغير منذ ذلك الحين .

والكنائس ذات الطراز البازيليكى - وهى ذات الأعمدة والتجاويف نصف الدائرية الثلاثية ، والتى لها طابع المنبر الرومانى - تتضمن أحيانًا ملامح غربية خاصة .

وهى مشهورة بمنابرها الرخامية وبإطاراتها العاجية المحفورة بدقة على جدرانها ، والتى تتميز بها الأعمال القبطية الموضوعة فى حواجز المذبح الخشبية . وأمثلة هذين الطرازين ترجع إلى القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر . ومن أكثر عاديات العصور القديمة : قبو كنيسة «أبو سرجة» الذى قد يكون سابقًا القرن الخامس ، وهو أبسط المعابد الكبرى وأقلها ابتذالاً فى أوائل مراحل المسيحيين . وقد ارتفع مستوى الأرض المحيطة بها حوالى عشرين قدمًا . ونقلاً عن التقاليد القدسية فإن القبو يشير إلى موقع بناء البيت الذى كان فى ذلك الوقت حى بابليون اليهودى الذى نزلت فيه العائلة المقدسة أثناء إقامتها فى مصر . وربما هنا فى مكان ما تعلم السيد المسيح - وهو طفل - الكلام ، فهل كانت لغتة هى لغة والديه الآرامية ؟ كما تعلم كيف يقيم العالم الخارجى - وهنا ربما أدرك لأول مرة العلاقات الإنسانية - تلك العلاقات التى كثيراً ما أدخلت عليها تعديلات تنبع من تعاليمه .

وفى المتحف القبطى بالقرب منها تكشف الأشغال الخشبية والعاج المنحوت والأقمشة القديمة ، أن فن الأقباط الدينى المميز فى جوهره والذى تطور عن التقليد الإغريقى أقر تمامًا فى منتصف القرن الرابع . وقام الأقباط بنقل كلتا الطريقتين والنقوش الزخرفية للمسلمين بعد ثلاثمائة عام .

ومما يسترعى الانتباه أن بقاء الكنائس فى بابليون (أو ما يعرف الآن بمصر القديمة) أقل من بقاء الأقباط أنفسهم كجالية قائمة ، وهم بذلك مثال آخر للمقاومة القوية التى يتميز بها طابع وادى النيل منذ العصور الأولى . فعندما اختفت المسيحية من الشمال الإفريقى استمرت فى مصر حيث حافظ الأقباط على عقيدتهم ، على الرغم من العداء والاضطهاد (غير المتواصل) من حين لآخر - فكان الأقباط والمصريون - وهو اسم مرادف أولاً وأخيراً - يمثلون كل ما تبقى من حضارة الفراعنة والبطالسة فى شكلها المسيحى وذلك عند مجيء العرب . فكلمة «قبط» - وهى الاسم العربى للأقباط - هى نفسها كلمة مصرى ، حيث اشتق الاسمان من كلمة «أيجوبينوس» اليونانية . وأكثر من ذلك فإن دم المصريين القدماء ما زال يجرى فى عروق الأقلية المتدنية التى

تتمسك بالمذهب الوحدوى ، لأنهم قلما تزوجوا من خارج كنيستهم . وفى بابليون حافظوا على اللغة المصرية على الأقل حتى القرن الحادى عشر ، وظلوا يتحدثون بها فى أجزاء من صعيد مصر بعد ذلك بحوالى مائتى عام أو ثلاثمائة عام ، وما تزال اليوم باقية فى طقوسهم الدينية بالرغم من أنها تكتب بحروف مشتقة من الإغريقية .

وبسبب الضغوط على مر القرون تخلى كثير من الأقباط عن عقيدتهم ؛ إما اختيارياً أو لعدم المبالاة أو الاضطهاد ، واعتنقوا الإسلام . والبقية المتشبثة اليوم - وهى تقترب من خمسة فى المائة من الشعب - احتملت البقاء بعد تعاقب أعوام من الخيارات المؤلمة . وهى تتكون من أناس كان أسلافهم من المهارة بحيث يتفادون الاضطهاد ومن الشجاعة بحيث يتحملونه ، وكانت جاذبية المسيحية قوية ، وكان تكيف الأقباط وذكاؤهم وازعاً لاجتذابهم نحو المراكز ذات الأهمية . فكانوا دائماً يتجهون نحو عمل أمناء الصندوق أو خبراء الاستثمار أو مستشارين لأصحاب الأرض المسلمين . وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين استطاعوا بفطنتهم أن يجمع كثيرون منهم الأموال الكثيرة . وفى الوقت نفسه كان لا بد للأقباط أن يتجهوا نحو تطوير صفاتهم التى تتميز بها الأقليات المضطهدة . وليس من العجب أنهم كانوا يلجئون إلى الفساد والرشوة . وكان أمنهم وبراعتهم تعتمد كثيراً على الدهاء ، كما أن دينهم ومجتمعهم لا يمكن الحفاظ عليه إلا بدرجة من الفطنة والخضوع . ومثل هذه الأخطاء لا بد أن ننظر إليها فى ضوء رسوخ دينى يكاد يوصف بالبطولة .

وبسبب تغربهم عن حكامهم البيزنطيين ، فإن مسيحيى بابليون لم يحزنوا حين وقع المكان فى أيدى القوة العربية بقيادة عمرو بن العاص عام ٦٤١ ، بل ربما قد رحبوا بقرار القائد الذى صدر بعد ذلك بإقامة عاصمة جديدة لمصر الإسلامية ، وهى إلى الشمال . ولأنها أقيمت على الخطوط - وهى كلمة معناها باللاتينية «فوسا» - التى احتلتها القوات المهاجمة خلال الحصار ؛ فإنها سميت «الفسطاط» ، وعلى الرغم من أنها تحتوى على أول جامع على الأرض المصرية ، وهو جامع عمرو ، إلا أنها خططت أساساً كمعسكر به أماكن مختلفة لجنود كل قبيلة عربية . وحين نمت «الفسطاط» بعد ذلك لتصبح ميناء هاماً ، كان لها المكانة الأولى كمركز تجارى حتى عام ١١٦٨ ، حين أحرقت عند اقتراب الصليبيين ؛ وبذلك حرم الفرنجة منها ، ولكن المدينة التى استمر حريقها ٥٤ يوماً لم ترجع أبداً إلى ثرائها .

كانت «الفسطاط» هى الأولى من خمسة أماكن ساهمت فى نمو مدينة العصور الوسطى ، وكانت جميعها قائمة بين جبل المقطم وخط القناة العتيقة التى ربطت نهر

النيل بالبحر الأحمر (وإن كانت القناة ، التى يعرفها المسلمون بالخليج ، كانت قد أغلقت كممر بحرى عام ٧٦٥ تحقيقًا لسياسة ذلك الوقت) . ولما كانت الرياح المنتشرة عبر ذلك الوادى الرملى تأتى من البحر المتوسط - وكان الحكام الذين تتابعوا مصممين على الاستمتاع بنسيم الصيف العليل - فإن العاصمة انتقلت باستمرار إلى الشمال حتى نهاية القرن الثانى عشر .

وكانت مصر من عام ٦٦٠ إلى ٧٥٠ دولة تابعة للخلفاء الأمويين الجذابين وغير المتكلفين فى دمشق ، ولكن حين انتقلت الخلافة عام ٧٥٠ إلى الخلفاء العباسيين فإن الدولة كانت تحكم من بغداد ، وتدين العاصمة لامتدادها المهم إلى حاكم عباسى : ابن طولون الذى أقام شبه استقلال عام ٨٧٠ ، فقام ببناء الحى الرسمى الجديد القطائع فى شمالى الفسطاط (وأيضًا فى شمال مكان آخر ظهر فى القرن الثامن وهو المعسكر الذى لا تزال بقاياه قائمة) ، وكان يحتوى على القصر والأبنية الحكومية ومسرح للمنوعات والجامع المشهور الذى يحمل اسمه . كان ابن طولون على درجة عالية من الذكاء والمعرفة والأخلاق . وقد ورث ابنه خمارويه عنه حبه للأبنية والقليل من صفاته ، ولكن على الرغم من ذلك فنحن ندين لهذا المدعى بصورة تعكس ثروة عاصمة الدولة الطولونية وروعتها الفاخرة ، ولما كان يعانى من الأرق فإنه أقام - بالإضافة إلى قصر أبيه - قصرًا أعظم ، وحمامًا من الزئبق يحيط به رواق مقام على أعمدة من فضة ، وهناك حيث كان يهز على أريكة لينة ، كان يغازله النوم تحت حراسة أسد له عينان زرقاوان .

وبعد جيلين بعد أن اغتيل خمارويه ، غزا مصر الفاطميون القادمون من تونس وقد جاءوا من الغرب ، كما فعل القليل من غزاة مصر . ومثل الفارسيين اليوم كانوا شيعيين أعضاء طائفة مسلمة مارقة ترجع نزول الخلفاء إلى علىّ زوج فاطمة ابنة النبى محمد والذى كان قد اغتيل . ونتيجة لذلك أصبحت مصر مقر الخلافة الشيعية التى استمرت مائتى عام ، والتى فى أوج قوتها حكمت البلاد من طرابلس إلى دمشق . ولكى يحتفلوا بغزوهم للبلاد أقام الفاطميون فى عام ٩٦٩ الحى الملكى «القاهرة» وذلك شمالى قطائع حكم ابن طولون التى أصبحت فى ذلك الوقت مجرد أنقاض ، وقد أفسد التجار الإيطاليون اسم القاهرة وحولوها إلى Cairo برغم أن أهالى البلاد يطلقون عليها لقرون عديدة اسم مصر .

وقد خططت القاهرة على خطوط مستقيمة ، مثل إسكندرية البطالسة ، وكانت مخلوقًا مزخرفًا وطموحًا . وكانت جدرانها فى الغرب تحف بقناة الخليج ، وفى الشرق كانت تطل على صحراء تعرف اليوم بـ «مدينة الموتى» حيث كان من أهم من دفنوا هناك

بدر الجمالى ، كان وزيراً من أصل أرمنى ، وهو الذى بنى الأبواب الرائعة للمدينة الفاطمية . وكانت القاهرة تقطعها من الشمال إلى الجنوب قصبة القاهرة الواسعة ، تحيط بها السرايات الكبيرة والصغيرة ، وكانت السرايات الكبيرة تغطى مساحة سبعين فداناً ، ويقال : إنه فى القرن الحادى عشر كانت القصور تأوى ١٢ ألف عائلة . وكانت هناك أجنحة ملكية أخرى مقامة فى وسط حدائق تروى بصفة منتظمة ، منها أروقة الزمرد والنسيم والتصر ، وعلى طول الخليج أجنحة اللؤلؤ والذهب . وقد نشرت العقيدة الشيعية المدافن والجوامع الأنيقة . ومن سخرية القدر أن جامع الأزهر – وهو أول منشآت الفاطميين – قدر له أن يصبح بعد قرون أقوى كلية لعلم الكلام فى الإسلام لنشر العقيدة السنية . ومثل عاصمة الدولة الطولونية من قبل ، أصبحت القاهرة الحرم الرسمى ، ومقر الحكومة المدنية والعسكرية ، ولكن بحكم أنها كانت من خلق خليفة طاغية بدون أى ارتباط بتقاليد عرب الصحراء ، فإنها كانت تعبر عن صورة وحالة بيزنطية .

وكان سكان الفسطاط من التجار ، يحتاجون إلى تصريح لدخول أسوار المدينة ، وكان من حق الموظفين الرسميين أن يمتطوا الخيول بشرط ألا تزيد سرعتهم على السير على الأقدام . وكان السفراء الأجانب مجبرين على تقديم أوراق اعتمادهم سيراً على الأقدام فى تواضع . ويصف ويليام أوف تاير سفارة إفرنجية فى عام ١١٦٧ ويعطى صورة للأوضاع المهيبة التى أحاطت بالخلفاء الفاطميين .

وبرفقة الوزير وحاشيته المسلمة تقدم الإفرنج خلال طرق تحت سطح الأرض كانت من الملامح القريبة للقصر ، ومروا بأبواب متتالية وهم فى حراسة عبيد ، ليجدوا أنفسهم فى النهاية فى حوش مرصوف بالفسيفساء ، وكانت أعمدته المرمرية تحمل أروقة مسقوفة منقوشة ، وكانت هناك برك مرمرية للأسماك مليئة بالمياه الصافية ، وشاهدوا طيوراً غريبة وحيوانات عجيبة ، مثل ما يراه الإنسان فى الأحلام . وحين تقدموا واقتربوا من الحرم الداخلى شعروا بالتعجب والرهبة من الثراء والترف المحيط بهم . وحين توقفوا أخيراً أمام الديوان الملكى ، انبطح الوزير ثلاث مرات وخلع سيفه ، وحين انفتحت بعد ذلك الستائر المطرزة بالذهب واللؤلؤ ، ظهر الخليفة بطريقة درامية وهو يجلس فى وضع ملكى على عرش من الذهب .

وكان الخلفاء الشيعيون الأوائل لا يقلون عجباً عن مدنهم ، وكان المعز – أول فاطمى يحكم مصر – وابنه العزيز يمتازان بتسامح ووسع أفق يذكرنا بالإمبراطور فريدريك الثانى الذى جاء بعدهما بمائتى عام ، ولقد كانا ذكيين وعلى دراسة لشئون

الحياة ولديهما الوفير من المعلومات ، ومن ثم فقد كانا راعيين متنورين للمعرفة والفنون . وتعد العمارة وصناعة الفخار والمنسوجات فى حكمهما من أروع إحرازات مصر فى العصور الوسطى ، كما أن مدينتهما عكست ثروة كبيرة . وكان الخليفة العزيز يرتدى عمامة من خيوط الذهب، وحين كان يمتطى حصانه كان طقم الحصان معطراً بالعنبر ، وكانت خيوله متشحة بدروع مطعمة بالذهب . وقد تركت أخته التى ماتت كأميرة عجوز فى عام ١٠٥٠ - بالإضافة إلى أشياء أخرى عديدة - خمس زكائب من الزمرد وثلاثة آلاف آنية من الفضة المطعمة وثلاثين ألف قطعة من التطريز الصقلى (معظمها مغزولة) وتسعين إبريقًا وحوضًا من الكريستال الصخرى . وحتى حين كانت الأسرة الحاكمة فى أفول فإن الخليفة كان يمتلك ٣٨ مركبًا ، وكانت خزائنه تحتوى على العديد من الأشياء الثمينة النادرة ، مثل رقع شطرنج قطعها من الذهب والفضة ، وظبى منقط باللآلئ ، وطاس من الذهب له عينان من الياقوت وريشة من الميناء .

ولكن من نهاية القرن الحادى عشر تعرض الفاطميون لضغوط من الخلفاء السنيين فى بغداد ومن مملكة الفرنجة فى القدس . وبعد وصول سفارة الصليبيين بقليل والتى وصفها وليام أوف تاير ، جاء حريق الفسطاط . وبعد ثلاث سنوات من الحريق استولى صلاح الدين العظيم ، باسم العباسيين فى بغداد ، على القاهرة وكانت تلك نهاية حكم الخلفاء الشيعيين .

واعترف صلاح الدين بولاء صورى لبغداد ، فى حين كان عازمًا على إقامة أسرته الحاكمة الأيوبيين ، ومن ثم حل المذهب السنى التقليدى محل المذهب الشيعى ، وأعقب موظفى الحكم الفاطمى إدارة غالبيتها عسكرية . وفى نفس الوقت اتخذ صلاح الدين فى الحال إجراءات للقضاء على الصفة المتميزة للقاهرة ، رمز الحكم الفاطمى ، وأسكن صلاح الدين ضباط جيشه فى القصور والأروقة ، بينما شجع التجار واللاجئين من الفسطاط على الإقامة داخل الأسوار ، وأصبح الحرم الملكى مركزًا تجاريًا ، وقامت الأبنية فى الحدائق وسرعان ما فقدت المدينة طابعها المخطط المتساوى ، حتى أصبحت بمرور الوقت ذلك الجحر النابض الذى نعتبره اليوم من الآثار الحقيقية لمدينة العصور الوسطى .

ومثل من جاءوا قبله - عمرو وابن طولون والمعز - قدم صلاح الدين كأحد البنائين ، الإضافات المخططة لمدينة العصور الوسطى لكنها كانت فى صورة أخرى ، ومرة أخرى خططت المدينة لكى تصبح بصفة خاصة مكانًا ملكيًا وإداريًا وبعين الجندى المحترف اختار صلاح الدين مرتفعًا يعرف باسم «القلعة» ليس بعيدًا عن تلال المقطم ، وفى

جنوب شرقى المدينة الفاطمية . وقد أصبحت «القلعة» التى بدأ بناؤها عام ١١٧٦ وأحاطت بها أسوار ضخمة من الحجر ، والتى يذكرنا بناؤها بأعمال الصليبيين التى عرفها صلاح الدين فى سوريا - أصبحت قلعة واسعة وقصراً فى نفس الوقت - وساعدت الآبار العميقة وشبكات المياه المفصلة على تحويل قمة التل الجدباء إلى حديقة ، وشيدت جوامع فى داخل الأسوار . وبسبب حسن اختيار المكان وضمان وسائل حمايته أصبح ذلك المكان مركز الحكومة خلال القرون العاصفة لحكم المماليك والعثمانيين .

ومن عام ١٢٥٢ حين انهارت أسرة صلاح الدين الحاكم ، حتى وصول الأتراك عام ١٥١٧ كانت مصر تحت حكم المماليك . وكانت تلك الطبقة الأرستقراطية العسكرية ، التى لا تختلف كثيراً عن Condittieri المزدهرة فى أوروبا ، أساساً من الرقيق التركمان ، وعادة من آباء مسيحيين . وقد رفعوا من بين صفوفهم السلاطين متتاليين ، وبنفس السرعة خلعوهم أو اغتالوهم . ومما أعطى لهؤلاء الحكام الذين لا يخضعون لأى قانون مظهر الشرعية : وجود ممثل لخليفة بغداد الشرعى فى القاهرة من عام ١٢٥٨ ، حيث منحوه حق اللجوء ولكن دون أية سلطة . وعلى الرغم من الحكم الدموى غير المستقر لهؤلاء الجنود المحترفين إلا أنهم استطاعوا أن يطردوا الفرانك (الفرنجة) من فلسطين وهزموا المغول بصفة مستمرة ، وبذلك حموا القاهرة من مصير بغداد . ومن الغريب ومن حسن حظ الأجيال المقبلة أنهم كانوا ولوعين بالبناء ، وعلى الرغم من أنهم لم يشيدوا أية أحياء جديدة مهيبة إلا أنهم حشدوها بالقصور والجوامع والأضرحة والمستشفيات والحمامات وخانات لاستراحة القوافل . إن هذه النصب التى ترمز لقوتهم وثرائهم عظمتهم تمثل غالبية الآثار المعمارية التى بقيت من العصور الوسطى .

إن المماليك أخرجوا - أيضاً على فترات متقطعة - سلاطين على درجة عالية من المقدرة سواء كجنود أو كإداريين . إن الكثير من الأسماء العظيمة - بيبرس وقلاوون والناصر وقايتباى والغورى - قد خلدتهم الآثار التى بنوها . إن الحكم الطويل للناصر (١٣٠٣ - ١٣٤١) . وبعده الهزيمة الساحقة لكل من الصليبيين والمغول ترمز لأوج ظاهرة المماليك ، فقد كانت مصر تسيطر على موانئ شرقى البحر المتوسط وكانت تجارة القوافل تأتى بثروات متزايدة . ويصف الرحالة ابن خلدون بحماس المدينة بعد حوالى أربعين عاماً من موت الناصر فيقول : «لقد دخلت هذه العاصمة العالمية صديقة العالم وبوابة الإسلام ، وعرش الملكية ، مدينة الأجنحة المزوقة والقصور ، بها الأبنية والأديرة والكليات ، وهى تلمع تحت ضوء قمر المقرفة ونجومها» .

وبوصول العثمانيين الأتراك عام ١٥١٧ تغيرت الأمور بطريقة حاسمة . فقد صلب آخر سلاطين المماليك «طومان باى» على باب زويلة فى الحى الفاطمى القديم ،

وأبعد آخر خلفاء بغداد الضعفاء إلى إسطنبول ، وأصبحت مصر أحد أقاليم الإمبراطورية ، وأقام الباشوات الذين عينهم الباب العالى فى القلعة . ولم يمكن الحيلولة دون أفول القاهرة خلال الثلاثمائة عام التالية ، ولكن لا يجب أن نوجه اللوم كله إلى سوء حكم العثمانيين ، فقد أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند إلى انخفاض تجارة القوافل التى كانت لفترة طويلة عماد اقتصاد المدينة ، كما أن حوالى ١٠ آلاف من المماليك المتمردين المستبدين أقلقوا المدينة والإدارة العثمانية . ومن الغريب أنه فى مثل هذه الظروف استمرت عمليات البناء . ولكن من التراث الجدير بالذكر للقرنين السابع والثامن عشر : تلك السبل المرمرية التى تعطى طابعاً باروكياً لمدينة العصور الوسطى .

إن محمد على يعد رمزاً للقرن التاسع عشر ، وقد استطاع هذا الألبانى الكفء أن يجعل نفسه بطريقة عملية مستقلاً عن الباب العالى ، وتخلص من المماليك بطريقة قاسية ولكن فعالة ، وبدأ عملية تنمية قاهرة حديثة غربية . وبمرور الوقت اخترقت شوارع عريضة مشجرة – مثل شارع الموسكى وشارع محمد على ، وهى قبيحة المنظر مثل ندبة الجرح – نسيج الماضى التاريخى الذى لا يمكن تعويضه . وعلى الرغم من ذلك فمن حسن الحظ أن معظم هذا التحديث وقع غربى مدينة العصور الوسطى بين قناة الخليج التى كانت قد ردمت ، ونهر النيل . وفى نفس الوقت أسهم القرن التاسع عشر بعامل أخير له قيمة معمارية ، وهو القصور من طراز الروكوكو للخديويين والباشوات ، ولأن طراز الروكوكو لاءم الذوق التركى وتقاليد الطراز العربى الذى يميل إلى تقاليد التصميم الطولى القوى كما حدث عند شواطىء البوسفور ، فإنه وجد هنا تعبيراً مسلياً .

كان من المفروض أن تكون هذه المدينة الإسلامية العظيمة – التى لا مثيل لها فى العصور الوسطى والتى عرضنا لنموها باختصار – قد ماتت منذ مدة طويلة . وقد يكون هذا مؤكداً فى أية بلد آخر . ولكن برغم ضغوط القرن العشرين فإنها لا زالت باقية . والمنطقة التى كانت يوماً ما مكان إقامة الملوك الفاطميين وفى الحى الجنوبى المجاور بجامع ابن طولون ، لا تزال تعج بالحياة . وما علينا إلا أن ندلف إلى الشوارع الجانبية والحوارى المتعرجة ؛ لنتعرف على مدينة لم تتغير إلا قليلاً منذ أن وصف تخطيطها فى كتاب «المصريون المحدثون» منذ قرن ونصف مضيا . ولا شك أنه حدثت تغيرات عديدة ولكن ليس دائماً للأحسن . ولكن لايزال هناك نفس اللون والصوت والحركة ، ونفس العظمة المعمارية بكثرة وفى تلف ظاهر . ونرى الترزى وهو يجلس على عتبة حانوته منحنياً فوق إبرته ، وأصحاب الحوانيت الصغيرة وهم يرتشفون

القهوة التركية ويديرون أمور عملهم دون إسراع ، ويدا متجعدة تمتد من تحت قفطان مشغول وهى تحمل غليونًا طويلاً من خشب الكريز وله مبسم من الكهرمان ، بينما يقف رجل أعمى بجوار كومة من الخبز شكله مثل شكل خبز العصور الغابرة ، وبائع الشربات وهو يمر ويدق أقداحه المعدنية ، والنساء المتشحات بالسواد ، وقد نزعن الخمار ، ولكن ما زلن يسرن مثل التماثيل وهن يظهرن بريق الخلخال الفضى . وهناك الجمال تتأرجح فى طريقها فى استخفاف وهى تنقل العلف المكون من كومة من البرسيم الأخضر ، بينما تدور الصقور فى السماء المتوهجة ، وينعكس ضوء الشمس على مئات من المآذن تقع على نصف مليون سقف مسطح . ويتصاعد طنين من شقوق الشوارع النابضة .

وفى مثل هذه الخلفية فإن الجوامع تعطى إحساسًا عميقًا بالانفصال ، إنها متحفظة مثل تحفظ هؤلاء الذين يدخلونها للصلاة . إن النغمة المخففة للأبنية والإحساس بالزمن وهو يتقطر مثل المياه من فسقيات الوضوء ، تتنصل من سلطة الشوارع ، وحين يعبر المرء هذه العتبات فإنه ينتقل إلى صمت يصل إليه فى خطوة واحدة . إن الحوش الخالى والبواكى الباردة والشمس والظل - ولعله فوق كل هذا الفراغ وبساطة الجوامع الأولى - تتفق مع المفهوم النبلى للعبادة ، وتبدو بجوارها معدات الكنائس المسيحية صاخبة . هنا لا توجد مقاعد خاصة بالعائلات ولا هياكل ولا شمعدانات ولا صور ولا تماثيل ولا أى قرابين أو نذور . والموسيقى هنا ليس مرغوبًا فيها بينما لا تصمت الشوارع أبدًا ، والهروب من الألوان مرغوب فيه فى بلد تشرق فيه الشمس دائمًا . إن نسبة الوجود الرطب داخل هذه المساجد هروب من الحياة الصاخبة والمزدحمة . إن المسلم يجد فى هذا الحرم الخالى ذلك التباين الذى يسعى إليه الفلاح الكاثوليكى فى التألق والدفء والموسيقى فى الكاتدرائيات .

إن جوامع القاهرة تضرب مثلاً لما يمكن أن نطلق عليه - لأنه لا يوجد اسم أحسن من ذلك - «التقاليد الكلاسيكية للعمارة الإسلامية» ، إنها تقاليد تكره ما هو شاذ أو متعدد الصفات أو القوى التى على شكل حدوة الحصان أو الأقبية البصلية الشكل ، إنها تكبح - على الأقل قبل فترة حكم المماليك - الاتجاه الذى كثيراً ما يبدو فى الفن العربى ، للطيات التى لا معنى لها للأرابسك المنخفض القيمة . وقد روعى وجود توازن دقيق بين الأسطح البسيطة والأسطح المزخرفة ؛ ولهذا السبب فإن هؤلاء الذين تعرفوا على الفن الإسلامى فى أماكن أخرى والذين ربطوه بتعقيدات مضطربة ورشاقة مبتذلة ، يشعرون بالدهشة من الوقار والبساطة لهذه الأبنية من العصور الوسطى .

وقد يكون من المفيد أن نقدم باختصار تطورها المعمارى : فحين وصل العرب من الصحراء لم يكن لديهم أية عمارة ، وظهر أسلوبهم المتخصص من اتصالهم بتقليدين مشهورين للبناء : تقاليد الطوب والجبس فى بلاد ما بين النهرين ، وتقاليد الحجر المنحوت فى شمال سوريا ، ولكن كان لديهم منذ البداية متطلباتهم الطقوسية ، وهذه وجدت تعبيراً معمارياً خلال قرن منذ عام ٦٣٢ . ومثل جميع المساجد فإنه من ضمن هذه المتطلبات المحراب ؛ وهو كوة مزخرفة تشير إلى اتجاه مكة ، والمحراب قد يكون منبراً مأخوذاً عن كنائس شمال سوريا . وهناك أيضاً المقصورة وهى مكان يحيط به سور يفرض حماية الخليفة ، ثم بعد ذلك الإمام وهو يؤم للصلاة . وهناك الدكة وهى عبارة عن منصة قائمة على أرجل خشبية ، حيث يتلى القرآن وتكرر نداءات الإمام إلى جماعة المصلين ، وهناك أيضاً حوض للوضوء ، وأخيراً المئذنة حيث يقوم المؤذن بالدور الذى قام به مؤذن النبى بلال بن رباح بالدعوة للصلاة .

وبرغم أن المسجد يجمع هذه الصفات الطقوسية إلا أنه لابد من تأكيد أنه لم يكن أبداً مكان إقامة الآلهة ، ولا يحتوى على أى مكان مقدس (مذبح) . والمسجد يرجع إلى فناء منزل النبى محمد فى المدينة حيث كان يجتمع مع أصحابه للصلاة ، ومن ثم فهو أساساً مكان يجتمع فيه المؤمنون . وكانت الجوامع الأولى نظرياً واسعة بحيث تحتوى على كل الطائفة الإسلامية .

وقبل القرن السادس عشر كان هناك نوعان أساسيان من المساجد ، وكلاهما له نماذج رفيعة فى القاهرة : المسجد الجامع ، وأجملها يرجع إلى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر ، وهى أبنية واسعة ذات أقبية ، وكانت تلك الأقبية غالباً مقوسة ، وهى تحمل أسطحاً مستوية مقامة على أعمدة أو دعامات حجرية ، وكانت أغلبيتها تواجه مكة أو جدار القبلة بعمق ثلاثة أو أربعة أقدام أو أكثر من تلك الموجودة على الجانب الآخر من الفناء ، وهى تحمى المحراب (الذى كثيراً ما تسبقه قبة) والمنبر والمقصورة والدكة . وكانت أحواض الوضوء فى وسط الفناء لتسهيل الأمر على المصلين ، وفى نهاية المبنى على بعد كبير من القبلة توجد مئذنة أو أكثر .

ومنذ نهاية القرن الثانى عشر تحول المسجد الجامع إلى مدرسة أو مسجد تعليمى ، وكان الأخير على درجة من التعقيد برغم أنه أصغر ، فقد اختفت أقبية المسجد الجامع وحل محلها الإيوان أو الصالات المقببة ذات الأقواس العالية ، والتى كانت تطل على الفناء ، وفى نفس الوقت تقريباً تحولت بوابة المسجد إلى سمة معمارية بارزة ، وغالباً ما يكون على جانبها منارتان متشابهتان ، كما اتصل بالمسجد مقبب كان غالباً

ضريحًا مشيد البناء . وبدءًا من القرن الرابع عشر كثيرًا ما أضيف جزء آخر وهو نافورة ومعها مدرسة لتعليم القرآن ، ويطلق عليهما (السبيل والكتاب) .

وقد تعرض جامع ابن العاص لتجديدات مستمرة ، وهو يعد من أول الأبنية الإسلامية فى مصر ، وكان قد أصبح أنقاضًا مثيرة للشفقة ، ومن ثم نجد أنه فى القرن التاسع بدأ استكشاف العمارة الإسلامية للقاهرة بدءًا بجامع ابن طولون . ويقف هذا المسجد غربى المساحة المفتوحة التابعة للبلدية والتى ترقم مكان وميدان سباق ابن طولون ، حيث كان يتم استعراض ٣٠٠٠ من الجنود المختارين وحيث كان السلطان وحاشيته يلعبون البولو . ويقع المسجد فى داخل «الزيادة» . وهى أرض محمية ، تعد سمة نادرة مرتبطة بالمساجد الأولى ، ومن الزيادة يوجد باب يفتح على فناء واسع مقبب يغطى مساحة ستة أفدنة ونصف فدان . ويدعم الأقواس المدببة والبواكى دعامات حجرية . وفى القبلة نجد أن الأخيرة لها خمسة ممرات ، بالإضافة إلى ممرين فى الجوانب الأخرى من الفناء الواسع . وفوق الدعامات الحجرية توجد بواكى أصغر مما يعطى لها شعورًا بالخفة والارتفاع . وبدءًا من عام ٨٧٩ كانت تلك من أول الأبنية التى استعملت القوس المدبب ، وهى هنا تسبق بجيلين ظهور القوس القوطى فى الغرب ، وقد وفد البناء ابن طولون من مدينة سمراء ، ومعه البناء المصنوع من الطوب والحجر المنحوت الذى يذكرنا ببلاد ما بين النهرين ، كما يذكرنا بها أيضًا المئذنة المهيبة (التى جاءت بعد ذلك) والتى قد تعكس تقييم الزيجوارات العتيقة . وتوجد زخارف أكثر من شريط سلس من زخارف فخمة للزهور حول البواكى ، وفى الداخل نقوش بالخط الكوفى على خشب الجميز وعلى طول سقف خشبى . ومن مثل هذه العناصر البسيطة تحقق هذه الجوامع ذلك التناسب والإيقاع الكاملين . وكما هو الحال دائمًا فى الأبنية العظيمة فإن هناك شيئًا لا يمكن شرحه حول تأثيرها .

وهناك مبنى آخر فى القاهرة يخلق تأثيرًا مشابهًا ، وهو مدرسة السلطان حسن ، وكما كان جامع ابن طولون أعظم من المساجد الجامعة الأقل منه فإن مدرسة السلطان حين لا تقارن بالمدارس الأقل منها . ويرعم أنه بنى عام ١٣٥٦ حين كان هناك انحطاط ما . فإن مزاياه فى العمارة وليست فى الزخرفة ، كما أن الواجهة البسيطة للمشربية وهى ترفع عموديًا إلى علو كبير يخففها أفريز قوى وبوابة واسعة منحوتة مثل التالاكتايت (النوازل) ، وفى الداخل ردهة مقببة إلى دهليز ضيق يكشف بعد دورة إلى اليمين عن فناء الجامع الذى يعلو منه فى ثقة عالية الأقواس المرتفعة للإيوانات الأربعة . ومثل جامع ابن طولون لا يوجد إلا الحد الأدنى من الزخارف ، وترتفع الجدران العارية إلى السماء بتأثير هائل .

وتفصل خمسمائة سنة جامع ابن طولون عن جامع السلطان حسن ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك صفات معمارية متشابهة تجد التعبير عنها فى الأبنية العديدة التي ظهرت فى القرون المتوسطة ، وخاصة تلك التى بناها الفاطميون والمماليك البحريون . وكما رأينا فإن الفاطميين الهراطقة النوابغ غزوا مصر فى القرن التالى لبناء جامع ابن طولون أنشأوا القاهرة . وقد شيدت المدينة على خط الطريق القديم للقوافل ، ولا يزال شارعها الأساسى العجيب القصبة (وإن كان قد أصبح الآن أضيق مما كان عليه) يسير من باب زويلة إلى باب الفتوح . وقد بنيت هذه الأبواب فى أواخر القرن الحادى عشر ، وهى تمتاز بأبراج وأقواس دائرية ، وتعد من أروع المداخل إلى أى من مدن القرون الوسطى . وقد جاءت مثل التأثير الصليبى وهى من وحى بيزنطى . وكانت القصبة لقرون عديدة هى الشارع الأساسى للقاهرة ، ولصفتها هذه كانت تتميز دائماً بأبنية رائعة . لقد ذهبت القصور والأروقة الفاطمية ولكن ارتفع بجوار مساجدها ذات الأروقة المبكرة – الصالح طلائع والأقمر والأطلال القائمة لمسجد الحكيم – ظهرت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر المدارس والأضرحة المقببة للماليك العظام – قلاوون والناصر وبرقوق . ولا يوجد ما يقدم تأثيراً أكثر عدلاً لعظمة قاهرة العصور الوسطى أكثر من هذه الطرق التاريخية .

وإلى شرقى الشارع بقليل يقع أول الأبنية الفاطمية وهو جامع وجامعة الأزهر الذى أنشىء عام ٩٧٠ . وكان الغرض الأساسى من بنائه هو نشر الفكر الشيعى الفاطمى ، إلا أنه أصبح فى عام ١١٧١ مركز الفكر والعلم الإسلامى القويم ، وبالتبعية لم تتغير أغراضه ومناهجه خلال ٨٠٠ عام تقريباً . ولا يمكن لأى مجتمع إلا المجتمع الإسلامى الذى كان فى استطاعته إيقاف سير الزمن وأن يحتوى حب استطلاع الإنسان محتفظاً بعالم فى داخل عالم آخر . ففى هذه الكلية كرس الآلاف المؤلفة من شباب المسلمين أنفسهم لحفظ القرآن ولمناقشات حول الشروح القرآنية ، وغالباً ما كان نصف الطلبة من الأجانب المؤمنين الذين وفدوا من الصين والهند والملايو وتركستان والمغرب ووجدوا طريقهم إلى الأزهر ، وكانوا غالباً فى فقر مدقع . وهناك حين كانت الشمس حتى الأفق تدور حول الأرض قرأوا نصوصاً لم تتغير لسلفهم ودرسوا لكى يصبحوا من العلماء الصالحين . وكانت بعض الدراسات المتقدمة تحتاج إلى نصف عمر الطالب لكى ينتهى منها ، ولكن فى السعى وراء الحقيقة الروحية تكون السنوات ليست بذات معنى .

وفى عام ١٩٥٧ دخلت الدراسات المدنية إلى الأزهر ، وأنشئت كليات للهندسة والفنون والطب والزراعة ، وذلك بالإضافة الدراسات الإسلامية ، ولكن ما زال الفرد

حين يدخل ذلك الفناء المربع الواسع المرصوف سيجد فى أية ساعة من ساعات اليوم طلبة الدراسات الإسلامية وهم يجلسون «مربعين» على حصائرهم ، سواء منفردين أو فى جماعات ، وهم يحفظون القرآن ، وقد خلعوا أحذيتهم ووضعوها بجوارهم فى عناية وترتيب . وبينما هم يتعلمون كل بدوره فإنهم يتمايلون إلى الإمام والى الخلف. وقد يكون بعضهم هناك منذ الفجر إذ جاء مباشرة إلى كتابه بعد أداء فريضة صلاح الصبح ، وعلى الرغم من أن غالبيتهم من الفقراء إلا أن ظروفهم ليست بالضرورة صعبة ، لأن الأزهر يعبر عن الروح الديمقراطية الأساسية للإسلام الذى ينادى بأن جميع المؤمنين إخوة ، كما أن الطلبة يتلقون الدراسة بالمجان بالإضافة إلى السكن ، وذلك عن طريق الأوقاف التابعة للجامعة . ومن نفس المصادر تأتى ملايين الأرغفة المجانية - ٢٠ مليون جنيه عام ١٩٢٩ - التى كانت توزع فى يوم ما على الطلبة ، وكان رئيس الجامعة نفسه يتلقى ألف رغيف فى اليوم بالإضافة إلى راتبه .

وعلى الرغم من أن الأزهر تعرض لتغييرات عديدة ، إلا أن بساطة أروقة القرن الثانى عشر - حيث يجلس الطلبة على الأرض فى مجموعات حول مدرسيهم - تتفق تمامًا مع روح الزهد ، وتقع ظلال الأعمدة على الوجوه المتوترة المنشغلة ، وتنبعث الترنيمات المنخفضة المتتابعة لمئات الآيات من القرآن فى صوت واحد ، ولا يتوقف التمايل المنتظم . وفى الخارج تحت الميدان الذى تغطيه السماء الزرقاء يتجول الأشخاص فى الفناء الذى تضيئه أشعة الشمس ، ودائمًا فى مكان ما تجد الرجال وهم يركعون فى صلاتهم تجاه مكة فى خشوع وبدون خجل أو ارتباك ولطلبة الدراسات الإسلامية بعد العلم والدين شيئًا واحدًا . هنا يوجد رجال كبار السن قضوا سنوات تجعدت فيها جلودهم للحصول على معرفتهم المعقدة . وقد امتلأت حياتهم بشروح فوق شروح لإحدى علامات العقيدة ، وقد مر زمن طويل يحسبون فيه مقدار عرض ذلك الصراط الذى يعبره المؤمنون بعد الموت لدخول الجنة . وهنا لو كان هذا ممكنًا فى أى مكان آخر يستطيع الإنسان أن يفهم روح العصور الوسطى وذلك بعد إنكار الجسد ووهب النفس للعلم والمعرفة . هنا نجد مصباح رجال المدارس وعلماء القواعد والتطبيق . إن هناك شيئًا فى هذه الأبنية يدفعك إلى احترامها .

وهناك أيضًا فى داخل الأجزاء الفاطمية والطولونية وحولها لا تزال توجد أحسن نماذج للعمارة الإسلامية : البيوت الخاصة والحمامات وحانات استراحة القوافل التى ترجع إلى القرن الرابع عشر وما بعده . إن تصميم البيت الخاص لم يتغير إلا قليلاً عبر الأجيال ، وهو بين واجهة منخفضة ومدخل متعرج (يشبه مداخل قلاع العصور

الوسطى) يمنع رؤية الداخل من الشارع . ويقع البيت الذى غالبًا ما يكون ذا عدة طوابق حول فناء به رواق مسقوف على جانب ، حيث توجد نافورة تلطف للجو أثناء الصيف الحار . ويراعى فى توزيع الغرف خصوصية الحياة العائلية ، ومن ثم فإن السلاملك الذى يستقبل فيه سيد البيت ضيوفه يوجد فى الدور الأول ، بينما يوجد الحرملك وهو الجزء الخاص بالبناء فى مكان ما منفصل فى أعلى المنزل . ولتأكيد الخصوصية العائلية نجد مشربيات مشهورة بها القاهرة . وهذه المشربيات فى الوقت الذى تسمح بالهواء والضوء - ويمكن منها رؤية الشارع والفناء بوضوح - فإنها تحجب الرؤية عن العيون المتطفلة من الخارج . وغالبًا ما كانت الحجرات الأساسية مزينة بأفريز من المرمر الملون وأسقف منقوشة ومطلية والزخرفة التلاكتية المميزة للإسلام . وتوجد أرائك والعديد من الخزانات المتساوية مع الجدران تحل محل الأثاث المتنقل ، وعدد من هذه المنازل لا يزال سليمًا على الرغم من التلف الذى أصابها ، ومنها واحد أو اثنان مثل بيت الكردلية بجوار جامع ابن طولون ، وهى مفتوحة للزائرين .

وعلى الرغم من أن كل بيت له أهمية حيث يحتوى على حمامه الخاص ، إلا أنه كانت هناك حمامات عامة كثيرة . وكما يذكر المقريزى - وهو عالم طبوغرافية المدينة فى القرن الخامس عشر - كان هناك أربعة وأربعون حمامًا فى أيامه . ومن هذه الحمامات الباقية ذلك الذى بناه المملوك المؤيد فى القرن الرابع عشر ، بجوار المسجد الكبير الذى يحمل اسمه . ومثل هذه الحمامات التى تخصص للرجال أو النساء . كانت هناك أماكن لمنتجعات اجتماعية ولعبت دورًا لطيفًا فى حياة القاهرة . وأحيانًا ما كانت مجموعة من الصديقات تؤجرن حمامًا يبقين فيه طول اليوم مع جارياتهن ومغنياتهن ، وكان المساج وعلاج العظام ضمن الخدمات التى تقدم ، وكان الحمام لهذه الحفلات النسائية يقوم بوظيفة النادى وصالون التجميل .

وباعتبارها المحطة النهائية لطرق القوافل الكبيرة ومنتجعًا للتجار الأجانب ، فإن المدينة كانت تحتوى على خانات استراحة القوافل . وفى منتصف القرن التاسع عشر كانت هناك مائتان من هذه الخانات ، وكانت تلك فنادق الشرق . وقد بنيت حول فناء دائرى ، وقدمت خزائن واسطبلات للبضائع والخيول ، بالإضافة إلى حجرات لنوم التجار فى أعلى خان . وعلى الرغم من أنها لا تقوم بأغراضها الأساسية وكثيرًا ما تغيرت إلا أنها تعتبر بقايا الحى الفاطمى ، وبجوار جامع الأزهر نجد أن واجهة خان قايتباى المزين والمقام فى القرن الخامس عشر قائمة على الرغم من أن بقية المبنى قد اختفت . برغم الاهتمام الذى أغدق على تلك المؤسسات وكيف كانت على درجة عالية من الجمال والمهابة .

وإذا كان الحى الفاطمى يعكس عمارة مدينة العصور الوسطى ، فإنه أيضًا يقدم لنا طريقة حياة التجار التى استمرت دون تغيير كبير فى بعض الأسواق منذ أن أصبحت المنطقة مركزًا تجاريًا فى عصر صلاح الدين . وكما كانت العادة دائمًا فى أسواق الشرق فإن كل سوق كان مخصصًا لنوع خاص من البضائع ، وكان هذا النظام يضمن التحكم فى الأسعار بين المتنافسين من الجيران ، وذلك خاضعًا طبعًا للفصال بين البائع والزبون . وحتى خان الخليلى وهو بازار السياح الذى يقع على قاب قوسين أو أدنى من القصبة فإن له اهتماماته . وعلى الرغم من أن الآثار المصرية الجميلة والنسيج القبطى والفخار الفاطمى والمنتجات الفارسية قد اختفت تقريبًا من خان الخليلى ، إلا أن العمال الذين يجلسون ويطرقون النحاس ويطبعون عليه ما يريد الناس أن يشتروه ، يعكسون المهارة التقنية التى ميزت دائمًا المهارة الحرفية فى وادى النيل . وفى أحياء الصاغة المجاورة نجد جوًا أكثر أصالة ، وهناك قد نجد الفلاح الفنى يستثمر بذكاء بشراء عملة ذهبية سيضيفها تبعًا للتقاليد إلى العقد الذى تتحلى به زوجته .

ولكن حى العطارين – حيث تباع التوابل – هو الذى يلفت الأنظار حقًا ، وتذكرنا شوارعه أن أفقر زوجة قاهرية تفهم عن التوابل أكثر من أى طاهى غربى . ويتغلغل الإنسان إلى هذا الحى عن طريق زقاق ضيق لدرجة لا تسمح لاثنين بالسير معًا . وهناك غطاء على طول الحى لمنع الشمس ، ويسير الإنسان وكأنه تحت الماء . وعلى كلا الجانبين نجد أكوامًا من الزكائب من أوراق الورد والجنزبيل والزعتر والمستكة والقرفة والزعفران والكركم وحشيشة الملائكة وبرطمانات وينسون وكمون والحبهان والسمسم . والألوان جافة والتكوين جاف . ويستعمل ولد منهك الملط والمزقة فى طرق جذر ما مدة ليصبح ترابًا دقيقًا ، هنا نجد كل ما يعطى حدة للأحاسيس ، هنا العبق الذى يسحر والجرعة التى تشحذ الرغبة المنهكة . هنا فى صورة تراب أو مجففة نجد الجذور والأوراق وسيقان الزهور ونصف العالم الأخضر ، ويطغى على الزقاق رائحة ثقيلة لا يمكن تحديدها ، ومن الصعب أن تفرق بين الروائح المختلفة وسط هذه الفواكه والزهور الميتة . وتستعيد هذه البضائع – التى لم تتغير منذ القرن الخامس عشر – ذكريات طرق التوابل والقوافل والشحنات الشترية لشركة اللفانت .

وحين خضعت مصر فى القرن السادس عشر للإدارة العثمانية عكست العمارة المصرية وكانت قد بدأت فى الأفول ذوق اسطنبول وأحيانًا ما فعلت ذلك بزينة مختلفة ، وقد أشرت إلى النافورات من طراز الباروك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وإلى القصور المرمرية المزخرفة للخديويين . وكانت النافورات التى كثيرًا ما ارتبطت

بالكتاب من أهم وأجمل ملامح الشوارع القديمة . وهناك اثنان أو ثلاثة تزين القصبة . وقد اختفى الكثير من المنشآت الفريدة للباشوات والخديويين ، وتعرض قصر المجوهرات (الهيمو) المشهور فى القلعة إلى حريق قضى عليه . ولكن لايزال فى شبرا جناح صيفى فاتن يستعيد التألق المنحل لحكم الخديوى . وقد كان حى شبرا فى يوم ما منتجعًا للنبلاء والتجار الأجانب ، وكان الشارع الواسع الذى يقود إلى هناك مزدحمًا كل مساء بمركبات الأغنياء . وفى السبعينات كان أولاد الخديوى ، كل فى عربة يتقدمها أربعة من السياس ، هم قبلة أنظار هايدبارك الشرق . كان الطريق محتشداً كل يوم من الرابعة حتى السادسة والنصف بملاحق دبلوماسيين وجهاء يمتطون خيولاً عربية . ورجال بنوك يهود يركبون عربات عادية ، وحريم منقبات فى عربات يجرها حصان واحد ، مصنوعة فى لندن ، وأصحاب حوانيت إيطاليين فى أثواب حديثة وشيوخ جادين يمتطون حميراً ، وضباط فى حلل مطرزة ذات شرائط . لقد تغير الزمن واختفى الشارع الواسع وأهملت الحديقة الواسعة المحيطة بالمنتجع ، كما أن المنتجع نفسه قد تدهور . وعلى الرغم من ذلك فإن البناء نفسه يذكرنا بآخر بهاء للأتراك قبل أن تصل الإدارة البريطانية المنظمة لتعلن بدء عصر الماكينة .

ولا تعطى الواجهة العادية المستطيلة ذات الدور الواحد أية إشارة إلى المفاجأة اللطيفة والهائلة فى الداخل ، وحين يفتح الباب يثير الداخل مفاجأة كبيرة ، فالنسبة كبيرة على مثل هذا البناء ، إذ يحيط رواقد مسقوف من المرمر الأبيض وقواس رشيقة ، تحيط بما كان من قبل مساحة من الماء النقى . وفى الوسط توجد جزيرة مسورة من المرمر ، مقامة على تماسيح مكشرة عن أنيابها ، حيث تعلت مياه النافورات . وفى كل ركن من أركان الرواق يوجد كشك ذو رقة غير طبيعية ، ينعطف إلى البحيرة . وتثير الطريقة التى يتموج بها سقف الرواق بهجة معمارية ، ويقع خلف الكشك حجرة مزخرفة وملونة . أصبحت الآن مترية وإن كانت لم تتغير منذ كان الخديويون يسكنون ضيوفهم فى هذه القطعة من الخيال المعمارى منذ قرن مضى ، وتغطى السقف والجدران رسوم جدرانية ، من الواضح أنها من أعمال صانع إيطالى ماهر ، ركبت فى إطارات من الخشب أو الجص . إن الزخرفة منتقاة بطريقة متعمدة . وتحيط الستائر الخادعة بمناظر التوسكان ، وهناك نساء عاريات ممتلئات ، ورسوم شاذة تمثل صدى ليومبى ، بينما توجد فى حجرة محلاة بالطيور طيور أجنبية ، جنبًا إلى جنب مع طيور نهر النيل . وهذا ليس فنًا كما أن تنفيذه بدائيًا ، ولكن هذه الصور وتلك التى تزين بوفرة أسقف الأكشاك المفتوحة والأروقة تثير بحنين مؤثر غبطة عصر الروكوكو وترفه العقيم .

واليوم غزت مجموعات من نبات السمار البحيرة ، وتغطس طيور الرفراف فى المياه الراكدة ، وتبنى طيور الكروان الحجرية أعشاشها فوق سقف الرواق ، وعند الشفق ترفرف خفافيش الفاكهة داخله وخارجه خلال النوافذ التى أصبحت بدون ألواح زجاجية ، ويتشقق فى الجدران ضوء الأرابيسك والرسوم الرمزية والمناظر الطبيعية ، وانفكت دعامات المرمر . ولكن لا يزال ذلك المكان الذى بني للمرة الخامسة ، تلك النزوة المصورة ، والإطار المزخرف لمياه صناعية لا يزال حافظًا لتوازنه وواثقًا فى نفسه . ولكن لغياب الإصلاح والرعاية فقد لا يبقى أكثر من ذلك . ومثل المجتمع الخديوى الذى أحيا شبرا فى وقت ما أصبح موضة قديمة .

ويجثم فوق قلعة صلاح الدين وبجوار مسجد الناصر البسيط (وهو نموذج متأخر وعظيم للمساجد ذات الأروقة الزاهدة والتى تعد مسرة معمارية) أكثر معالم القاهرة شهرة ، جامع محمد على من القرن التاسع عشر . وقد أقيم الجامع فى مكان القصر الأيوبى الذى وعظ فيه سانت فرانسيس الأسس للسلطان الكامل ابن شقيق صلاح الدين ، ويعد مبنى له قوة غير طبيعية . ويستحق الجامع الزيارة لحد ذاته وللتراس الذى يظل على منظر مشهور ، فهناك عند غروب الشمس يجب أن يقف الزائر وترتفع همهمة من المدينة الواسعة والمتنوعة والقابعة فى أسفل ، وتبدو أبنيتها وكأنها تخفق بالحياة المختلفة التى تحتويها ، وتحفر الشوارع الضيقة طريقها خلال المادة الحية ، وتقع وراء الأقبية والمآذن المدينة الحديثة ، لونها أكثر شحوبة ، ثم يأتى نهر النيل وما وراء ناطحات السحاب والأحياء المتخلفة تسرع الزراعة خضراء تجاه الأفق ، حيث تقبع الأهرامات بقوة على حافة الصحراء وكأنها على منصة . وحين تغطى أشعة الشمس التراب فإنه يتحول إلى ذهب ، ويغطى المدينة وكأنه من نسيج شفاف . ويشاهد كل شىء : الحاضر والماضى ، الطوب النيىء والأسمنت عبر ذلك الضباب الرقيق المتألق الذى يتحول تدريجيًا إلى شكل أكثر شفافية . ثم حين تسقط الشمس خلف الصحراء الغربية يزول الضباب ، وهناك غسق فجائى وفى الجو الحر يمكن للإنسان أن يسمع المدينة وهى تتنفس بارتياح وبتعمق . وتفقد المساجد والمآذن والفنادق العالية ، وحتى نهر النيل لا يمكن تعقبه ، وتبدو نقاط وخدشات من الضوء فوق الظلام الذى يخبىء ٧ ملايين نسمة : مدينة الحكام الرومان والمسيحيين الأوائل ، مدينة عمر الغازى والخلفاء الفاطميين ، ومدينة المماليك والباشوات ، مدينة الموظفين وعمال البترول والمقاولين ورجال الأعمال والسياح والشحاذين ، كلهم يتشاركون مع سلطان هجره النوم ، يهزونه على بركة من الزئبق ، ويحرسه أسد بعينين زرقاوين . إنها حقًا مدينة ألف ليلة وليلة .

الفصل العاشر

الرمال والأديرة

تعد الصحراء طبيعة مصر الأخرى ، وبخلاف الأراضى الزراعية فهى طبيعة من التلال والأدوية ، وأجراف متآكلة من تأثير الرياح ، وقنوات مياه فارغة . وتمتد كثبان بيضاء متموجة على أرض قفر من الحصباء منبسطة منضدة البليارىو ، أنها طبيعة مجال متناسق ، حيث لا نرى أطراف النباتات أو أبنية من صنع الانسان تخفى الريتم الجيولوجى وبيانات الصخور والطبقات أو التعبيرات المقتضبة لسلاسل الجبال .

لا يوجد شيء من النشاط المتعالى للنمو ، وما يوجد من خضرة يعيش على حساب الجفاف ، وهو صغير ويقضى على نفسه بنفسه فى وسط الأحجار الشوكية غير المرئية .

إنها طبيعة فقدت كل صفاتها ، وأيضا فهى – أكثر من غيرها – طبيعة تتغير بتغير الضوء ، فمن الفجر إلى الظهيرة تتحرك خلال ألوان رمادية غير واضحة ، ثم وردية وصفراء ثم بيضاء ، وينعكس هذا الطيف كلما انتهى اليوم . وما عدا هبوب العواصف الرملية الخانقة فإن الهواء الجاف يكون لاذعا ومنشطا ، والشمس ملتهبة والليالى قاسية البرودة ، والصوت الوحيد هو صوت الرياح .

إن الصحراء تكون ٥٥٪ من أرض مصر ، ولكن طبيعتها تختلف اختلافا بينا شرقى وغربى النيل . فالصحراء الغربية التى تمتد حتى الحدود– وهى خط مستقيم رسمه السياسيون فى صحراء خالية قليلة التضاريس – ولكنها تحتوى على تسلسل من الواحات التى تتابع من سيوه فى الشمال ، وبها المعبد المتداعى لجوبتر آمون حتي الخارجة فى الجنوب . ولوجودها تحت مستوى البحر فإن هذه الواحات تتغذى عن طريق عيون تنبع بطريقة مبهمة من مستنقعات السودان الواسعة والبعيدة . وتقوم قمم أشجار النخيل التى تحدق من فوق حافة هذه الواحات الخضراء لتعلن عن وجود القرى ومزارع النخيل التى تمثل اقتصادا سعيدا . وعلى الرغم من أن هذه الواحات تقع على بعد ٢٠٠ ميل من الأراضى الزراعية ، وبعضها بعد الكثبان الرملية العالية فى بحر

الرمال الكبير ، فرنها تطعم جميع سكان الصحراء الغربية الذين يصل عددهم إلى ١٥٠ ألف نسمة . وبعض الواحات ، مثل الفرافرة ، لا تزيد على رأس دبوس على الخريطة ، بينما نجد أن مساحتها يبلغ نحو مائة ميل .

وعلي عكس ذلك ، نجد أن الصحراء الشرقية الاصغر حجما - والتى تقع بين نهر النيل والبحر الأحمر - ليست إلا شبكة من التلال ، ترتفع فى بعض المواقع إلى أكثر من ٧٠٠٠ قدم . ولا توجد فى هذه الصحراء أية كثبان أو واحات ، ولكن الأمطار التى كانت تسقط منذ عشرات الآلاف من السنين تنقب فى أودية عميقة متآكلة ووديان من الصخور والطمى ، وهى تحتوى على الآبار المتناثرة والتى لا تكاد تفى بأود البدو الرحل ، وهذه الجبال التى لا تزال تأوى الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء وبعض الحيوانات المرتبطة بأرض الحشائش التى سبقت الجفاف الكبير والتى وجدت ملجأ أخيرا منها .

وقد تكون الأسود البالغ عددها ١٠٢ - والتى أدعى أوفيس فرعون المملكة الحديثة أنه قتلها بيديه - قد وجدت فى الصحراء الشرقية ، وحيث تسقط الطبيعة القاسية إلى البحر الأحمر ، ويتبعثر عدد قليل من أشجار النخيل على طول الساحل ، نجد بعض المستوطنات وبعض الآثار العظيمة التى ترجع إلى أيام الأسرات والبطالسة ، وهنا يتركز السكان الذين يبلغون ٥٠ ألف نسمة . وقد كانوا عبر التاريخ بحارة أو قاموا بصيد الأسماك فى الشعب المرجانية .

وكان السائح فى الماضى أحيانا ما يغامر وينتقل على جمل إلى ما بعد الأهرامات ، حيث يعسكر ليلة ، ولكن صحارى مصر حتى وقت قريب كانت قاصرة على الرحالة المجربين ، وكان بمساعدة دليله يتوغل إلى الواحات الغربية أو البحر الأحمر بعد سفر أيام على ظهر جمل ، ولكن سرعان ما جاء أول موتور واندفع المستكشفون بسياراتهم إلي أماكن كانت من اختصاص الجمال ، ولم تكن السيارة لأنها أكثر تحركا من القافلة مرتبطة بالآبار ، ومن ثم فقد عبروا بحار الرمال غير المعروفة ، كما أعيد إلى الخرائط الواحات التى كانت قد فقدت منذ أيام سلاح الجمال وقت الرومان . وبقيام الحرب العالمية الثانية أصبحت الصحراء الغربية ميدانا للقتال ، وأثارت الدبابات رمالها . لقد قهرت الآلات المساحات القفراء ، والآن أصبح الشخص العادى رحالة صحراء أن طبيعة مصر أصبحت فى متناول الأيدى ،وقد يكون هذا تغيرا واضحا وإن كان مؤسفا .

والبدوى – وهو يقود جماله من مخيم إلى آخر، ويواصل سيره متعبا عبر الشمس والرمال ، ويتجمد من البرد فى الليل ، ويعيش حياة لا يقدر علهيا إلا القليل – يتوقف عن السير حين يرى نفخة تراب فى الأفق ، ويقترب التراب ، وتهرول دائما من ظلاله سيارة تصبح على مرأى العين ، وبدون تردد تغطس السيارة فى الوادى ثم تظهر – فى كفاءة غير بشرية – فى نفس السرعة وهى تقترب ، ويرى البدوى وهو يغمض عينيه من ضوء الشمس رجالات بنظرات سوداء ووجوها يبدو عليها الشبع ، ويلوحون له بأيديهم ، ويجد نفسه فى حيرة ويقف بلا حراك في سحابة من التراب . ويخفف أزيز السيارة ، وفى ذلك السكون يهز البدو رأس الجمل الذى يسير على رأس القافلة فى شىء من عدم التصديق وشعور شبه عدائى ، وتتردد القافلة ثم تبدأ سيرها فى خطوات بطيئة متتابعة .

أما المسافر بالسيارة الذى تجهده الحضارة الزائدة فإن الصحراء تقدم له هروبا رومانسيا ، كما يعطيه تحدى صعوباتها المخففة نفس الشعور بالقرب الزائد من الحياة والذى يشعر به البعض خلال الإبحار فى مراكب مفتوحة أو تسلق الجبال . وهناك اقتناع مشترك بين الذين يلجون الصحراء أن الوجود أكثر واقعا على بعد ٢٠٠ ميل من المياه ، ومعهم بندقية على المقعد الأمامى ومصل ضد لدغة الثعبان فى حقيبته المصنوعة من الصوف . وقد يكونون على حق فإن الصحراء تثير أيضا شعورا باكتشاف على وشك الوقوع . وهو ليس ذلك الشعور بالتقرب المبهور الذى يعرفه المستكشف الذى يكون على وشك أن يلج منظرا انتظر وصوله لقرون عديدة ، إن مثل هذه التجربة نادرة فى أيام استعمال الجمال ، وقد يكون هناك من سبق السيارة من قبل . إن هذا هو بالضبط الذى يخلق احتمال الاستكشاف ، فالصحراء تقتل ولكنها لا تطحم ، فإن مساحاتها الشاسعة الجافة لا تألو جهدا أحد ترقد آثار الماضى : بندقية قديمة من وقت نابليون ، أو القافلة المبهرة التى أزاحت الرمال المتحركة عنها الستار ، أو حتى مخبأ ذخائر ومؤن فقده جيش قمبيز وهو فى طريقه إلى واحة الخارجة وظهر الآن للعيان . إن الزمن فى الرمال لا يمحو إلا القليل ، ومن الصعب ملاحظة مروره ، وهذا الرجم من الحجارة قد يكون رفع من يوم واحد أو قرون عديدة . وفى غربى قنا على بعد أميال من طريق القوافل ترقد جمجمة بشرية تحت ظل شوكة أوقف نموها ، وهى الشجرة الوحيدة فى ذلك المكان الفسيح ، وبجواره يوجد قفص خيرزانى شبه مدفون ، ولا يوجد ما يبين متى مات الرجل وهل مات من العطش أو من العنف فالزمن لا يقدم أى دليل وإن كان يمتنع عن التدمير وأمام هجوم الرياح تلتف الصحراء بالنظام .

ويتوقف المسافر فقط لفترة تعجب قصيرة ، إذا يجب أن يوفر خياله ويحافظ على جدول سيره . فالزمن هو المياه التى لا يحمل منها إلا عدد محدود من الجالونات . وهناك قصص معروفة عن هؤلاء الذين جابوا الصحراء بمفردهم وتحطم محور عجلة السيارة أو تسرب للبترول وجاءت النجدة متأخرة فماتا من العطش والسائق لا يقدر على أن يتباطأ عند جماجم الآخرين ، فالسير تبعا لبوصلة غير دقيقة لن يؤدى إلى مطعم من ثلاث نجوم أو إلى فندق يطل على منظر مشهور ، ولكن الهدف النهائى بعد يوم طويل يبدو أكثر ترحابا من أي شئ آخر على الطريق . إن ضرورة احترام الجدول الزمنى تماما والسير بدقة وفقا للإرشادات أساس هام .

وبالرغم من أن الرحالة قد يبنى نوعا من الألفة مع بعض هذه المناظر الصادقة فإن شموله قد يفوته ، فخلف الأهرامات يمتد ٣٠٠٠ ميل ، ومن الصعب إدراك المقياس الحقيقى ، فالكلمات مثل ما لا يمكن قياسه ولا نهاية له . ليس لها إلا المعنى القليل ، والغريب أن المسافر قد يستجيب لرغبة في الهروب من المعسكر فى المساء ، ومن سيارته التى تقبع فى صحبته ، فيسير بعيدا عن النظر والسمع إلي سكون مقبض ملموس ، لدرجة أنه يجذبه من كمه . وإذا استطاع أن يتوقف عن التنفس وينصت بتركيز كاف فقد يحدث شئ يغير حياته ، لعله السكون نفسه ، ولكن ذلك بدون فائدة فذلك يصرفه عن الألفة مع الوحدة ، فإنه يسترجع خطواته ، وهناك حول المخيم يوجد دركن إنسانى من الصحراء يهدئ من روعه .

إن إسلاف سائق السيارة والسكان التاريخيين للصحراء ينقسمون إلى قسمين : الراهب الجالس والبدوى المتجول ، وباختلافهما فى العنصر والدين وطريقة الحياة فانهما ينفصلان دائما عن بعضهما .

واندفاعا من وازع النسك العظيم فى القرن الثالث ، فإن الأديرة القبطية فى الصحراء تحتل مكانا فريدا فى تاريخ المسيحية . إن الرهبان الذين اتحدوا لكى ينشئوا هذه الأديرة بدأوا حركة كان لها أن تبعث السلك الكهنوتى للأديرة فى الغرب ، إذ أن مفهوم حكم الأديرة يعكس مساهمة مصر فى حضارة العصور الوسطى ، لقد كانت الرهبنة بلا شك رد فعل مسيحى طبيعى لمذهب اللذة المتطرفة للأسكندرية ومدن الدلتا فى الفترة الأخيرة من الحكم الأغريقى الرومانى ، فالنظرة الآثينية إلى الأشياء التى ترتبط بها الرهبنة كانت معروفة فى مصر ، ولابد أنه كانت هناك معرفة بجماعات

الرهبنة على طول النيل وفي فلسطين . وقد أدى اضطهاد دليان (٢٥٠ ميلادية) إلى دفع الرجال إلى العثور على الأمان والعمل فى الصحراء . وقد كان الكثيرون من الرهبان الأوائل من الفلاحين البسطاء الذين اعتقدوا - كما يعتقد الفلاحون اليوم - أن الصحراء هى المأوى الطبيعى للعفاريت ، ومن ثم لم يكن التراجع بعيدا عن النيل انسحابا ، لقد حمل الراهب الصليب إلى أرض العدو .

وكان الحماس للرهبنة سريع الانتشار ومعديا ، وسرعان ما اكتسب سلطة من اسم وشخصية قوية وهو القديس أنتونى العظيم ، الذي انتقل إلى الصحراء عام ٢٨٣ وأصبحت غواياته موضوعا متكررا فى التصوير الضوئى ، وعبد تردد قامت الكنيسة بتأييد الحركة ، وما إن جاء القرن الرابع إلا وكانت جماعات الأديرة قد حصلت على مكانة قانونية وسلطة امتلاك العقار وسرعان ما وجد ٥٠٠٠ راهب فى غربى الدلتا .

وفى الشرق تغلغلت الحركة إلى سوريا عن طريق القديس بازيل ،كما قامت سلطة أثاناسيوس فى روما ، ثم قام مارتين بنقل هذه البدع عبر الألب ، ولم يمر وقت طويل إلا وكانت قد وصلت بريطانيا والتحق ما لا يقل عن ألفى راهب فى بانجور بشمال أيرلنده . وما أن جاء عام ٥٦٦ إلا وكان القديس كولومبا فى أيونا ولم يتقدم التأثير المصرى بعد ذلك .

وقد تميزت رهبنة الصحراء بقسوتها الصارخة وطابعها العبادى ، ففى مثل هذه العزلة لم توجد فرص التعليم أو العمل الصالح ، ومن ثم فإن الجماعة لم تمارس نفس التأثير الإجتماعي مثل ما حدث فيما بعد فى رهبنة الغرب . وكما قال القديس جون ، «إن واجب الرهبان ليس التعليم بل النحيب » وكانت الحركة التى جذبت أساسا الأذلاء وغير المتعلمين غير فكرية . ومما له دلالة أننا ندين فكريا لأيدى آبائنا الصحراويين وليس لعقولهم ، ومن ثم فهم فى عرف التقاليد المصرية حرفيون ذوو ضمائر حية ومقلدون دقيقون ، ونحن ندين لهم بالنصوص المسيحية التى نسخوها بكل أمانة .

ولم يحل أى شىء دون استمرار تقاليد الرهبنة المصرية ، ويوجد عدد من الأديرة على طول وادى النيل مثل الأديرة البيضاء والحمراء فى وسوهاج ، والمؤسسة الكبيرة المحطمة للقديس سيميمون بجوار أسوان ، ولكن هذه التقاليد نراها فى أوجهها فى الأديرة الحقيقية فى الصحراء : القديس أنطونى والقديس بول المعزولان فى أحضان الجبل بجوار البحر الأحمر ، والأديرة الأربعة فى وادى النظرون فى الصحراء الغربية ،

ودير سانت كاترين فى سيناء . وتعد سانت كاترين وكانت شقيقتها الأولى هى سانت هالينا من أشهر المؤسسات على الأرض المصرية ، ومن المعروف أن رهابنها يتمتعون بمزايا من سيدنا محمد نفسه . ولكن من صفات هذا الدير أن رهبانه يتبعون الطقوس الأرثوذوكسية وليست القبطية (ومن المؤسف أنها الآن فى أيد أسرائيلية ومن ثم من الصعب الوصول إليها) .

وعلى عكس ذلك فإننا نجد أنه منذ إنشاء الطريق عبر الصحراء الغربية الذى يربط القاهرة بالاسكندرية فإن كنائس وادى النطرون – وهى الدليل المهيب للرهنبة القبطية – أصبح من السهل الوصول إليها . الوادى عبارة عن منخفض ضحل على عبد سبعين قدما تحت سطح البحر ، وهو يحتوى على سلسلة من البحيرات المالحة ، والنطرون الذى يترسب منها كان يستعمل فى الماضى فى التحنيط ، وترتفع الأديرة قائمة فوق المنخفض وتعطى جدرانها العالية – والتى تحتوى على مركز أعلى للمراقبة شكل القلعة ، وقد كان الأمن أساسيا ، وحتى وقت قريب كان الزوار يصلون إلى بين الحارس عن طريق سلة – وفى الداخل نجد أن الجدران كنائس أديرة (احدها يرجع جزء منه إلى القرن السابع) ، وغرف طعام بدائية بها مناضد مصنوعة من الطوب النيئ وصفوف من الحجرات الصغيرة وأشجار وحدائق مظلة تثير الدهشة فى مثل تلة الخفية الصحراوية ، وأخيرا وليس أخرا آبار المياه الحلوة التى تجعل الحياة ممكنة .

ومستعمرة الأديرة هذه موجودة منذ ٣٣٠ ميلادية ، ومن المحتمل أن يكون أول مذهب رهبانى رسمى قد أقيم هنا ، والاستمرارية عجيبة وزائر مصر لابد أن يلاحظ ذلك البقاء المستمر ، ويجب أن يفعل ذلك بسرعة ، إذ إنه خلال السنوات القليلة الماضية فقد دير أبو مقار الذى يحيط به الآن سور من الأسمنت جدرانه القديمة ، كما أن بعض التغييرات المعمارية شوهت أبنية لم تلمسها يد منذ آلاف السنين ، ويعد دير براموس أكثر الأديرة الأربعة بعدا وأقلها تأثرا . ولقرون عديدة كان مفهوم رهبان زاهدين يعيشون حياة صالحة فى الصحراء ، تؤثر تأثيرا أخلاقيا على العالم المسيحى ، إن الرهبان المتلحفين بالسواد لازلوا هنا يصلون ويزرعون الحدائق ، وباعتبارهم أحفاد القديسين الفلاحين فإنهم يقدمون الكرم البسيط إلى الزائر الفضولى الذى يأتى إلى الوادى كما فعلوا فى العصور الغابرة ، وعلى الرغم من أن عددا قليلا من الرهبان متعلم فإنهم يعتقدون أن هناك حياة توجد فى سكون الصحراء أكثر ثراء من المدن الخانقة والطبيعة النفعية لوادى النيل .

وقد يوافق البدوى على هذا الرأى لو أنه فكر فيه ، فهو مرتبط بالقفازى ورتم الترحال ، لدرجة أن حكم سجن طويل الأمد يعنى بالنسبة له الأعدام . إن حرية الحركة شئ أساسى له ، أنه الحالة البسيطة للوجود التى تعودوا عليها والتى أصبحت ضرورة جسمانية ، ولم يوجد أناس نظر إليهم بطريقة رومانسية مثل البدو ، لأن هؤلاء الذين يتصلون بهم يبدأون بشرح حياتهم فى ضوء أفكار مسبقة غير مدروسة ، ومما لا شك فيه أن راكب الجمل الذى يقابله الغريب عند غروب الشمس بعينيه الثاقبتين وأنفه المعكوف والخنجر بمقبضه المطعم وهو يبرز من حزامه وهو ملتف بكل ما هو مرتبط بالبرنس يعكس شكلا مهيبا ورائعا ، وفى خيمته المصنوعة من شعر الماعز الأسود سيقدم القهوة بعد يومين سفر بالجمال من أقرب مصدر للمياه ، فإن كياسته وكرم ضيافته يزيد من الانطباع الحسن، إن قوة تحمله لصحرائه وتفانيه فيها تثير المشاعر ، ولكن الصحراء لا تعنى نفس الشئ للبدو وللآخرين ، فللبدوى لا ترتبط الصحراء بأية صورة رومانسية ، إنها مجرد المنطقة التى يسد فيها رمقه فى حياة غير ملائمة ، يعيش فى وسط عداءات قبلية واحتكامات داخل قبيلته وقد انهزم فى كفاحه من أجل البقاء وتركه فى الأركان الحدباء . إن كبرياءه العميق واعتقاده أنه هو وقبيلته هم خيار الناس هو الذى يدفعه إلي قبول مصيره . وحيثما لا يوجد بترول فإنه مثل بيئته لا يتغير كما أن تطوره ، مثل الأمطار العنيفة التى تخرت أودية الصحراء ، حدث من فترة بعيدة ، وفى الصحراء الشرقية حيث يوجد عدد من الآبار التى بها المياه طوال العام نجد أعشابا متناثرة فى الأودية العمقية ، يعيش بها حوالى ٦٠٠٠ بدوى رحل حقيقيون ، وهم يعيشون بصعوبة ، أما فى الصحراء الغربية فإنهم أقل لأن معظمهم الآن – وقد وجدوا موطئ قدم فى الواحات – تركوا حياتهم الرحل ما عدا بعض الفصول المعينة .

إن مكانة البدو كانت في فترة ما مختلفة ، ولعدم الاستغناء عنهم في تجارة القوافل التى كانت تدر ربحا وفيرا فقد كانوا المتخصصين فى شئون الرمال ويتمتعون بمزايا الأخصائيين ، فإنهم قدموا المهارة فى الآثر وفى الحماية الأساسية لنقل البضائع عبر الصحارى ، وعلى الرغم من أنها كانت تجارة غير مضمونة فإنها كانت تجارة ترتبط بثراء كبير ، وحققت ثروات عظيمة ، وبوصول الجمل فى مصر فى القرن الرابع الميلادى اتخذ الصحراوى أهمية جديدة فى عهد البطالسة الذين حاربوا طويلا من أجل السيطرة على طريق الجمال ، وبدع ذلك زكثر الحكم الرومانى ظهور مدائن للقوافل وازدهار مخازن صحراوية مثل نيرا وبالميرا ، وقد أثرت قاهرة القرون الوسطى

بسبب الضرائب التى كانت تحصل عليها من مرور الجمال ، وفى النهاية أدى ابتزاز المماليك فى القرن الخامس عشر إلى رفع أسعار التوابل في القاهرة إلى خمسة عشر ضعف ثمنها فى كلكتا ، مما دعا البرتغاليون إلى فتح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند .

وعبر الصحراء الغربية من أسيوط على نهر النيل تسير الجمال مرة أو مرتين فى السنة فى أعداد تصل إلى ألفي جمل ، تبدأ فى سيرها عبر درب الأربعاء وطريق الأربعين يوما فى طريقها إلى واحة دافور ، ومنها تعود ومعها العبيد والعاج والبضائع النادرة من الجنوب ، وعبر الصحراء الشرقية من قنا حيث يقصر العبور إلى موانئ البحر الأحمر كان يوجد مرور مستمر لفترات طويلة . وفى القرن الثانى عشر قال ابن جبير الشاعر وسكرتير حاكم غرناطة وكان فى طريقه إلي مكه : إن مجئ وذهاب قوافل التجار والحجاج جعل الصحراء « مسكونة وآمنة » .

ولكن القناة الأساسية لتجارة القوافل المصرية كانت صحراء سيناء وهى الجسر الذى يصل خليج السويس بخليج العقبة ، ويصل ارتفاع جبال سيناء فى الجنوب إلي أكثر من ٨٥٠٠ قدم ، وكانت معروفة فى عهد الأسرات بسبب ثروتها المعدنية ، وكانت تعرف باسم صفوف الفيروز ، ويوجد فى هذا البلد الوعر أودية درامية وواحات صغيرة حميمة ، حيث تخلق المياه وأشجار النخيل وبعض أشجار الطرفاء ظلا وحياة ، والأشجار مليئة بالطيور وتنزلق الحشرات عبر البركة الصغيرة ويسترخى توتر الصحراء . وهنا على جبل موسى يقال أن موسى تلّقى الألواح وأن الاسرائيليين قد يكونون وجدوا ملجأ أثناء السنوات الأربعين التى قضوها في الأقفار ، ولكن كانت أرض شمال سيناء المتعرجة بين الجبال والبحر المتوسط هى التى أوجدت طرقا طبيعية للقوافل ، وبخلاف وقت الحروب الصليبية حين كان الخليج مقفولا من وقت إلي آخر ، فإن شريط الصحراء هذا كان قرنا بعد قرن طريقا اقتصاديا يقوم البدو على خدمته ، وكان هناك طريق فى الشمال عبر العريش على الساحل يصل إلى الفرات عن طريق دمشق وبالميرا . وفى عام ١٨٧٣ بعد أربع سنوات من افتتاح قناة السويس مرت ١٣٥٨ قافلة ، كبير وصغيرة ، عبر العريش .

وهناك طريق آخر فى اتجاه الجنوب يعبر شبه جزيرة سيناء إلى العقبة وبترا ويقود إلى الجزيرة العربية ، وهو طريق درب الحج المشهور أي طريق الحجاج ، يستعمل لكل من التجارة والعقيدة ، هنا في كل عام يعبر حشد من الحيوانات والآدميين

والبضائع إلي مكة ويجتمع ذلك الحشد فى شمال القاهرة ، وكان يبلغ أحيانا ٥٠,٠٠٠ فرد معظمهم من الحجاج ، ومن هناك يبدأون رحلتهم وهم يفعلون ذلك فى فرقتين تتكون من البربر وغيرهم من أقصى الغرب ، وقد رحلت عبر ساحل شمال أفريقيا ويفصل سير يوم واحد بين الفرقتين ، وبعد أربعين يوما يصل هؤلاء الذين لم يستسلموا أثناء الرحلة إلي هدفهم ، ويسافر مع القافلة شيئان لهما احترام رفيع : الكسوة المقدسة الذى نسجت فى القاهرة لتغطى الكعبة وهى الحجر الحرام فى مكة والمحمل . والأخير عبارة عن محفة فارغة ، ولكن شعار الملكية يحلى المتحفة التى سافرت فيها السلطانة شجرة الدر وقامت بتلك الرحلة الشاقة فى عام ١٢٨٢ .

وحيث يعبر درب الحج سيناء يساعد هطول مطر قليل مثل الساحل الليبى على ظهور بعض النباتات الأرجة . وفى الربيع يوجد فصل قصير مشرق من الزهور ، ويبنى طائر الطيهوج الرملى عشه فى شقوق الحصى . وهنا عبر القفر الخالى من الأشجار نجد أحواضا ضحلة ولكنها محددة ، عرضها قد يكون ١٨ بوصة متجهة إلى الشرق ، وكل من هذه الأحواض مرت عليها منذ قرون عديدة أقدام الجمال المتجلدة وهى تسير فى حذر عبر الصحراء . وتتبختر هذه الجمال على هذه الطرق التى كانت طرق القوافل الأساسية فى العصور الوسطى ، وهي تحمل بضائعها مثل الجيوش المتقدمة ، وقام البدو بدورهم في التاريخ ، وقليل من الجمال يمر اليوم . ولا تحمل هذه الطرقات أى حجاج أو توابل أو ذهب أو جلود فهود أو ريش نعام . لقد قاربت قناة السويس بين الشرق والغرب ، وأنذرت السفن بنهاية الطرق العريقة .

وعلى الرغم من أن صحارى مصر ستحتفظ دائماً ببقايا البدو والرهبان ، إلا أن آثار الماضى – التجارة وحماس النسك – أصبحت تاريخا . إن القادمين الجدد سائقى السيارات ويثور خلفهم التراب أصبحوا وارثى المساحات الخالية ، إنه شىء يثير الأشجان .

الفصل الحادى عشر

سيد الناس

عندما ظهر المصرى لسبب مجهود اسمى للتاريخ من فجره البدائي مستنبطا الرياضيات والآلات والتنظيم وكل ما يكون بداية الحضارة شرع فى بناء الأهرامات ، وقد احتاج الهرم الأعظم إلى ١٠٠ ألف عامل استغرقهم البناء فى عشرين عاما ، يعملون أثناء شهور فيضان النيل ، وعلى الرغم من أنه يقال لنا إن العمال كانوا يتغذون على الخبز والفجل فقط إلا أن هذا الاستخدام للعمل كان من شأنه أن يستنفد أي اقتصاد أكثر تقدما من دولة النيل الحديثة . إن الدولة لم تكن لتقدر على تلك الطاقة الحيوية التى صرفت فى تلك الجبال من الصخر والإنهاك الجسمانى الذي كان ثمن ذلك البناء وبعد أفول المملكة القديمة جاء بعده مائة عام من الفوضي .

وفي المملكة المتوسطة بتنظيمها شبه الاقطاعى كان الحكام ونواب الحكام أكثر قربا من الشعب ، وكانت الحكومة تميل إلي الصالح العام للدولة أكثر من أي فترة أخرى ، ولكن أمنحتب وسيزوستريس انتهيا ، وبحلول المملكة الجديدة أراد فرعون أن يصبح إلها أكثر منه حاكما مسئولا . وقد سعى الاستعمار والحكومة الدينية إلى تحقيق مصالحها ، وكان الشعب هو الخاسر ، وقد تكررت قصة الأهرامات في مئات من المعابد ، وانتقل نموذج خوفو من أسرة إلى أسرة . وبينما كان العمال الجوعى يهددون باجتياح مخازن الغلال العامة كان الاله آمون القادر على كل شيء والمدلل يتلقي ٢٠٥ آلاف مكيال من القمح فى صورة قربان فى عيده السنوى ، ومن المعروف أن ألفى عامل قضوا ثلاث سنوات فى حمل صخرة واحدة من اسوان إلى سايس عاصمة الدلتا ، وتحت حكم الفرس كانت القوى العاملة فى المدينة تكرس جهودها فى رعاية حذاء زوجة حاكم المقاطعة .

وهكذا كان القيل والقال ، وغالبا ما كان أكثر أعداء الدولة حكامها ، وكان الفراعنة والحكام العسكريون والمماليك والباشوات يبددون ثروات الشعب وأرواحه ، ويقال أنه حين قام أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين ببناء قناة تربط نهر النيل بالبحر الأحمر فقد ١٢٠ ألف رجل أرواحهم . وقد كرر التاريخ نفسه حين وهب آلاف

أخرى حياتهم فى حفر قناة السويس ، وفى محنتهم بحث الشعب دون فائدة عن قادة ، فنصبوا مخلصا ليبيا أناروس الذى صلبه الفرس ، وبعد ذلك أدعوا أن الأسكندر كان مصرى الأصل . وفى العهد المسيحى حين وجدوا بطرقا قبطيا يمثلهم ، كانوا على استعداد لمواجهة إمبراطور بيزنطة ، وقد يضمن بطلسيا ذكيا أو حاكما عسكريا رحيما وجود فترات من الحكومة الحكيمة ، ولكن الاغريق والرومان والعرب مروا بينما استمر الريف جفافًا يخيب آمال عمله ومياهه الغنية وتربته الخصبة ، وجاء أصعب جفافًا فى النهاية . . ومما أربك الأمور مجئ الحكم العثمانى عام ١٥١٧ ، وحتى نزول نابليون بعد حوالى ٣٠٠ عام استمرت مصر فى التدهور ، وأصبحت البلاد مقاطعة ، وكان كل مصالح حكومتها جبى الدخل ، ولكن كلما زاد الضغط على مصر قل ما يمكن أن تعطيه ، وبطل استعمال القنوات وأصبح الرى والمحاصيل غير مضمون ونقص عدد السكان . وقد حدث نفس الشئ فى التعليم ، فبينما كانت هناك ١٥٥ مدرسة فى القاهرة وحدها – قبل خمسين عاما من الحكم العثمانى – لم يكن هناك فى بدء القرن التاسع عشر أكثر من ١٥ مدرسة فى مصر كلها .

وبعد رحيل الفرنسيين جاء محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى استطاع أن يناور ويقاتل ويقتل حتى وصل إلى السلطة . ولا شك أنه كان شخصية عظيمة ، وكان بالتأكيد نافع للبلاد ، فقد أعاد النظام ، وأعاد تنظيم الاقتصاد ، وبدأ إصلاحات زراعية وتعليمية ولكن على الرغم من أنه حرر مصر فعلا من سلطة السلطان إلا أن حكومة تركية وأتراك هم الذين استمروا فى الحكم كان محمد على البانيا لا يتحدث العربية ، ولم يكن يعرف أية نظرية للحكم إلا تلك للباب العالى . وكان يختلف فى أن أداءه كان أكثر فعالية ، وأنه كانت له رؤيا واسعة . وقد أحل حكما صالحا إلي حد ما بدلا من الحكم العثمانى السئ . واستمر الجيش الذى كان يقوده ضباط أتراك وسوريون فى التدريب باللغة التركية حتى بعد الحرب العالمية الأولى ، وقبل قيام تمرد فى ١٨٨٠ لم يكن هناك إلا عدد قليل من المصريين ، استطاعوا أن يتغلغلوا فى صفوف المجتمع على الرغم من وجود عدد من الأسر ذات النفوذ أسندت إليها السلطة فى الأقاليم ، كنوع من الوسيط بين الحكام والشعب ، وفى نفس الوقت استمرت طبقة الحكام كما كان عليه العرف العثمانى في الاستعانة بالرقيق المعتوقين ، وحتى ١٨٥٥ كان حاكم القاهرة ووزير المالية ووزير الأمن وذو الفقار باشا وهو من الرجال المهيمنين إذ ذاك من الرقيق الذين ارتفعوا فى الوظيفة من العبودية . ولم تكن عادة رفع الخادم

الخاص إلى وزارة عامة واعتماد الوظائف على التآمر ونزوات حاكم مطلق تؤدى إلى تكوين ما كانت مصر فى أشد الحاجة إليه فى ذلك الوقت ، وهو أرستقراطية مسئولة ، كما لم يكن شكل الحكومة أو نواياها ترتب لمصر ما كانت تحتاج أن تشعر به حتى فى القرن العشرين ، وهو طبقة وسطى مستنيرة ومستقلة ونشطة . وأخيرا فإن العمود الفقرى للدولة وهم الفلاحون لم يشعروا بأي تقارب مع الدولة التى خلقها محمد على ، أو لم يكن ذلك مستغربا ، لقد عارضوا التجنيد من جانب حكومة أجنبية ، وكان العناد التقليدى للفلاحين الذى يكاد يكون صوفيا قادهم إلى إختيار بتر أعضاء من جسمهم للهروب من الخدمة العسكرية . ولكن عباس الأول اللئيم تحايل عليهم ، وبنفس العناد تقريبا كون فرقة من الرجال الذين فقدوا إحدى أعينهم أو الإصبع الذى يجذب زناد البندقية .

وليس بالمستغرب أن بعض أغانى الفلاحين فى تلك الفترة كانت معادية للسلطة بشدة ، والسطور التالية من إحدى الأغانى التى تعبر عن مشاعرهم :

جوعونا . . . جوعونا

وضربونا ضربونـــا

لكن فيه اللـــى فـــوق

فيه الـــلى فـــــوق

اللى يعاقبهم تمام

اللى يعاقبهم تمام

كان محمد على يعتقد أنه خلال عشر سنوات بعد موته ستطرد أسرته من السلطة ولكن لم يكن هذا ما حدث ، وكان بعد نظر الرجل العجوز لأول مرة خاطئا . فبعد وفاته عام ١٨٨٩ جاءت فترة من حكم عائلته كان عدم كفاءتها سببا فى إلغاء ما حققه من خير . مما أدى إلى تأخير تطور البلاد لنصف قرن آخر ، فقد ضعف التعليم أو تقدم بغير إنتظام ، وأصبحت مدرسة الألسن التى أنشاها محمد على فندق شبرد ، وجاء سفرجية مستر شبرد في أعقاب أساتذة اللغات الانجليزية والفرنسية والشرقية ، وانتشر الفساد ، وأصبحت الحكومة متقلبة الأهواء ، ولم يوجد أى حافز للمشروعات

الخاصة ، وحين وجهت إلى حاكم إحدى المقاطعات تهمة تعذيب الفلاحين سعيا وراء الضرائب أجاب بسذاجة إنه توقف عن هذه العمليات لأنها لم تأت بنتيجة ، ولم يكن من الممكن أن ينتظر من الموظفين أن يحتفظوا بمستوى من الاعتدال مادام أمامهم دائما مثال القصر . وعلى الرغم من قدرة إبراهيم باشا كحاكم وكجندى موهوب ، إلا أنه حيث شعر بعطش هائل فى يوم شديد القيظ استسلم إلى تأثير زجاجتين من الشمبانيا شربهما فى جلسة واحدة . وكان خليفة عباس الأول ماجنًا وقام مثل جدوده الفراعنة من ٣٠٠٠ سنة بالاحتفاظ ببعض السحرة والمنجمين الذين كان يستشيرهم ، أما خليفته سعيد وكانت له شهرة بروح الفكاهة والمرح فيقال أنه أطاح ببدوى متمرد باطلاق الرصاص عليه من بندقيته ، أما الخديوى إسماعيل فقد كان شخصية عطوفة وأن لم يكن أكثر منهم موهبة فى فن الحكم فقد اخفقت مشروعاته للتعليم والخدمات الاجتماعية وقبل تنازله عن العرش عام ١٨٧٩ كان تبذيره قد أدى إلى غرق البلاد عميقا فى الديون ، وكان من سوء الحظ أنه بعد أن اتصلت مصر بالحضارة الميكانيكية للقرن التاسع عشر أن تتعرض البلاد لحكم آخرق لمدة خمسين عاما .

وقبل ذهاب إسماعيل باشا تولت بريطانيا وفرنسا السيطرة لحماية مصالحهما المالية ولمنع إفلاس البلاد ، ولم يمر وقت طويل إلا وجاء الاحتلال البريطانى ، وكان هذا بالنسبة للفلاح مجرد تغيير للأسياد الأجانب ، وقد جاء البريطانيون مثل من جاءوا قبلهم في مصر من أجل أسبابهم الخاصة ، ومثلهم لم يكن لديهم أي عذر ، ولكن هناك فرق هام : كانت استعادة بريطانيا لحصتها المالية تعتمد على حجم من الرخاء وكانت مصر فى حاجة ماسة إلى ذلك التنظيم وإلى عدالة من السهل الحصول عليها ، ولهذه الأسباب فإن الاحتلال حتى الحرب العالمية الأولى قدم إلى الفلاح شكلا للحكم أكثر قبولا .

ولكن الأهمية الباقية للاحتلال كانت الروح الوطنية التى أثارها ، ويمكن القول إن أقيم إسهام للحكم البريطانى هو التذمر المتحد الذى حركه فى النهاية . لقد تحرك الرجل خلف الشادوف والمحراث وانتشرت الكلمات ، وصحا الشعب إلى يقظة سياسية . ولم يكن ذلك الشعور الوطنى ليصل إلي رجل الحقل ورجل الشارع أو كان هناك حكام مسلمون أو من نفس اللون أو العقيدة بل إن الحكم العثمانى المطلق وحرمان المصرى من الحياة العامة ومن الوظائف كان قد استمر لعقود عديدة ، وبمجرد أن قويت الروح

الوطنية كان من المحتم أن المصريين الأصليين ينجذبون إلى أماكن المسئولية . وعلى الأقل أصبح الفلاح – الذى لا يزال الدابة التى تحمل وزن الدولة – جزءا من أهل البيت لقد خلقت أمة كانت من قبل مجموعة من الأفراد .

وقد ترك رحيل البريطانيين مصر لبعض الوقت خاضعة لنزوات ملك غير حكيم ومضلل ، وفى عام ١٩٥٢ ذهب هو أيضا . وقد يكون هذا معناه أن مصر الحديثة التى سعى محمد على إليها قد نمت الآن ، ولأول مرة يوجد نوع من تلاقى المصالح بين الحاكم والمحكوم . لقد شهد الجيل الجديد تغييرات جذرية اجتماعية وتعليمية ، والاصلاح الشامل لملكية الأرض ، ومشروعات رى طموحة وخلال عشرين عاما تحقق الكثير .

وقليل من الزعماء واجهوا مشاكل فى صعوبة ما واجه جمال عبد الناصر ومن جاءوا بعده ، لقد عانت البلاد من الحروب أو حالة حرب فعلية قد تدوم طويلا ، وهذا يدعو إلي إنفاق على المعدات الحربية والسلاح التى لا قدرة للبلاد عليها ولكن لا يمكن تخفيضها وفى نفس الوقت يزيد السكان بمعدل إن لم يتوقف قد ينذر بكارثة . إن المشكلة السكانية حالية ذات خطورة مخيفة . وليس أقل من ذلك أن قيم الغرب التى تقابل بترحاب حماسى فى مصر فى الوقت الذى يشك فيها فى أوروبا ، تهدد الأساس الفعلى للمجتمع العربى .

وَلَكِنْ هُنَاك سببٌ للأمل ، فهناك ذخيرة عظيمة من الشخصية والحيوية ، تكمن فى مكان ما لهذا الشعب العريق ، ففى بلد لم يكن له مطلقا أي نظام طائفى حتى وقت الفراعنة ، فإن الهوية المتحدة تتحقق بصورة طبيعية ، وإذا ما أعطي الفلاح حاكماً يحترمه ، فهو ونهره يقدران على إنجازات تفوق الحصر . إن فترة سبات تاريخى لا يمكن الخلاص منها بمرور الأسرات وبضغوط السياسة الأمبراطورية قد وصلت إلي نهايتها . ولعل المصرى مدرك أن هناك ميراثا ينتظره وبعد كل ذلك الوقت ، يستحق ذلك الميراث .

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج عَلَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية	جون بايلس وستيث سميث	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس التبريزى	جلال الدين مولوى رومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٠٥٠ / ٢٠٠٠



EGYPT
LAND OF THE VALLEY
ROPIN FEDDEN



يتميز هذا الكتاب بالدقة فى المعلومات التى يحتويها ؛ حيث يعالج – فى أحد عشر فصلاً – تاريخ مصر وجغرافيتها ومناخها وعادات أهلها وتقاليدهم ، ويخصص فصلين طويلين للقاهرة بعنوان «أرض العصور الوسطى العظيمة» ، كما يخصص فصلاً عن المسيحية والأديرة القبطية فى الصحراء .

وروبين فيدين يقدم ذلك بتعاطف وفهم لمصر والمصريين ، ويقدم رأيًا مهمًا عن الهوية المصرية حين يقول :

« وفى وسط هؤلاء القوم وأرضهم جاء الأجانب بحثًا عن الثروة أو السلطة لإقامة أسر حاكمة أو لإدارة حوانيت بقالة ، ولكنهم فى النهاية دفعوا ثمنًا غاليًا لغزوهم ، لقد فقدوا هويتهم وانضموا تحت هؤلاء الذين غلبوهم أو استغلوهم . إن جموع الجنود الإغريق الذين جعلهم بطليموس يستقرون فى الفيوم لم يتركوا أى أثر أو عادة من عادات بحر إيجة فى تلك المدينة ، والليبيون الذين أعطوهم أسرًا حاكمة صحراوية ، والبطالمة الذين أسبغوا عليهم أسلوب الحياة ، والعرب الذين جاءوا بدين جديد : كل هؤلاء وغيرهم طمست آثارهم تمامًا ، وكانوا مثل الحصى الذى ترميه فى بركة فلا يفعل إلا مجرد تحريك سطحها ... ولكن مصر – كما وجدها هيرودوت من قبل – لا يمكن أن تكون أى شىء إلا مصر » .

الغلاف : عماد حليم